BOBST LIBRARY
3 1142 02821 9775

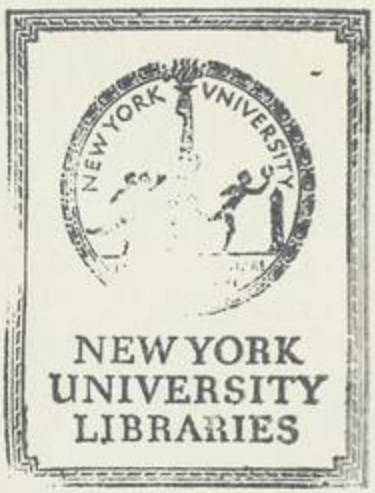

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

وزارة الدفاع الوطنى

Miṣr al-Ẓāfirah.

مِصْرُ الظَّافِرَةُ

صفحة فى تاريخنا القومى

Zakī, ʿAbdal-Raḥmān

البكباشى

عبد الرحمن زكى

مدير المتحف الحربى

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٤٦

N. Y. U. LIBRARIES

Near East
DT
79
.Z3
c.1

حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك

فاروق الأول

"ستكون مفاخر ماضينا وتراثنا الخالد خير عون لنا في بعث وطننا من جديد ، وفي التقدم به نحو الكمال الإنساني ، ذلك الكمال الذي ظل — على تناحر الشعوب واختلاف الفلاسفة في جميع الأقطار والأزمان — منذ كان أرسطو حتى ليوتولستوي — حلم العصور الكثيرة المتعاقبة . والمنارة اللامعة المغرية في آفاق البشرية السامية " .

فؤاد الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لكى يفخر الإنسان بوطنه . ويزهو بالانتساب إليه ينبغى عليه قبل كل شىء أن يعرف هذا الوطن .

والوطنى يستشهد فى سبيل بلاده التى يحبها . فقد نشأ فى كنفها وترعرع تحت سمائها . لذلك حرى بنا أن نعرف وطننا حق المعرفة لكى نحبه ... فإذا أحببناه فديناه بأرواحنا وروينا ه بدمائنا .

ولا ريب أن معرفة بلادنا من كل نواحيها فى مقدمة الواجبات الوطنية. نحس بجمالها ونشعر بمجدها وعظمتها ... نعرف مصر الفرعونية . ومصر الإسلامية ومصر محمد على ومصر اسماعيل ومصر فؤاد ومصر الفاروق ... فاذا ألممنا بكل الحقائق المتصلة ببلادنا ذكرنا أمجادها وتراثها .

لنذكر أيام منف وعين شمس وطيبة . عواصم وادى النيل القديمة — ولنستوعب ما كانت عليه — الاسكندرية والفسطاط . ولنعد بأذهاننا إلى تلك الأيام السالفة لما كانت القاهرة عاصمة امبراطورية كبيرة فى الشرق الأدنى .

ولنتخيل عهد الفواطم الذين رفعوا مصر إلى مصاف الدول العظيمة ، بل فى طليعتها . لما كان البحران الأبيض والأحمر بحيرتين مصريتين . ولنتصور عهد صلاح الدين و بيبرس وقلاوون وقايتباى. لما تزعمت مصر الشرق والغرب ، فى الحضارة والمكانة والسلطان .

ولنعرف أنه كانت لمصر عظمة ينبغى العمل على استرجاعها — ولنؤمن برقى ماضينا لكى نثق بأنفسنا. فنحن إذا لم نؤمن بقوة ماضينا... هيهات أن نثق بمستقبلنا — ولنشعر شعورا عميقا أن لبلادنا تاريخا خالدا مجيدا. ولندرس هذا التاريخ دراسة مشبعة بالوطنية لكى نلم بمجد الوطن الذى نعمل ونموت لأجله.

كانت مصر فى عهد الأقدمين سيدة العالم على الاطلاق ، فهى فى أيام الفواطم والأيوبيين كانت من أقوى دول الشرق والغرب. وفى عهد السلاطين المماليك كنا مسيطرين على زمام البحرين .

وفى عهد محمد على الكبير رفعنا أعلامنا على كريت والإونان والأناضول وكل ما جاورنا ، والى عهد اسماعيل كانت دولتنا تمتد إلى منابع النيل التى اكتشفها رجالنا وامتدت كشوفهم إلى المحيط الهندى — هذا كله .. يجب أن يذكر ولا ينسى . هذا كله .. ينبغى أن نبثه فى دمائنا ورءوسنا ونتقشه فى قلوبنا وصدورنا وأن نترسمه أمام أعيننا وفى خطواتنا ... فمصر .. مصر العزيزة أحق الأمم بالمفاخرة بما قدمته لدول العالم طرا ..

"نحن"

سلوا عنا أهل العلم وأهل الأدب ، بل وأهل الحضارة. فإن عندهم جميعا خبرا من بطولاتنا ومفاخرنا وأمجادنا وعلومنا وآدابنا وفنوننا .

فقد حملنا المنار الهادى والأرض تتيه فى بيداء الجهل. وقلنا لأهلها هذا هو الطريق ... بفجرى العالم من خلفنا .. يقتفى آثارنا ..

نحن نصبنا موازين العدل يوم عمّ العالم الظلم والطغيان. و بينا للعلم دارا آوى اليها حين شرده الناس عن داره .

نحن بناة منف وطيبة واسكندرية والقاهرة . . انتقلت حضارتنا إلى الشرق وإلى الشمال و إلى الغرب و إلى الجنوب. نحن شيّدنا جامعة عين شمس والإسكندرية والأزهر وعمّرنا مساجد دمشق والقاهرة والقدس والخرطوم. نحن علّمنا أهل الأرض وكنا الأساتذة وكانوا التلاميذ . . منّا مينا وأحمس وتحوتمس ورمسيس . منّا السلاطين والملوك . . تنظم فى مفاخرنا مائة اليادة وألف شاهنامة ثم لا تنقضى أمجادنا ولا تفنى . لأنها لا تعد ولا تحصى . . من يعد معاركنا المظفرة التى خضناها . ومن يحصى مآثرنا فى العلم والفن ؟

من يستقرى نابغينا وأبطالنا . . من له جدود كجدودنا . . فراعنة ملأوا الأرض عزة وعلما وفلسفة وفنا ونبوغا . وعربا خلدوا على الزمن مبادئ الرجولة والكرامة وأذاعوا فى أرجاء العالم أسرار العلوم والفنون . . من . . من . . من . . ؟

إن من له ماض كماضينا . . لن تعوزه المثل ...

مصر الفرعونية

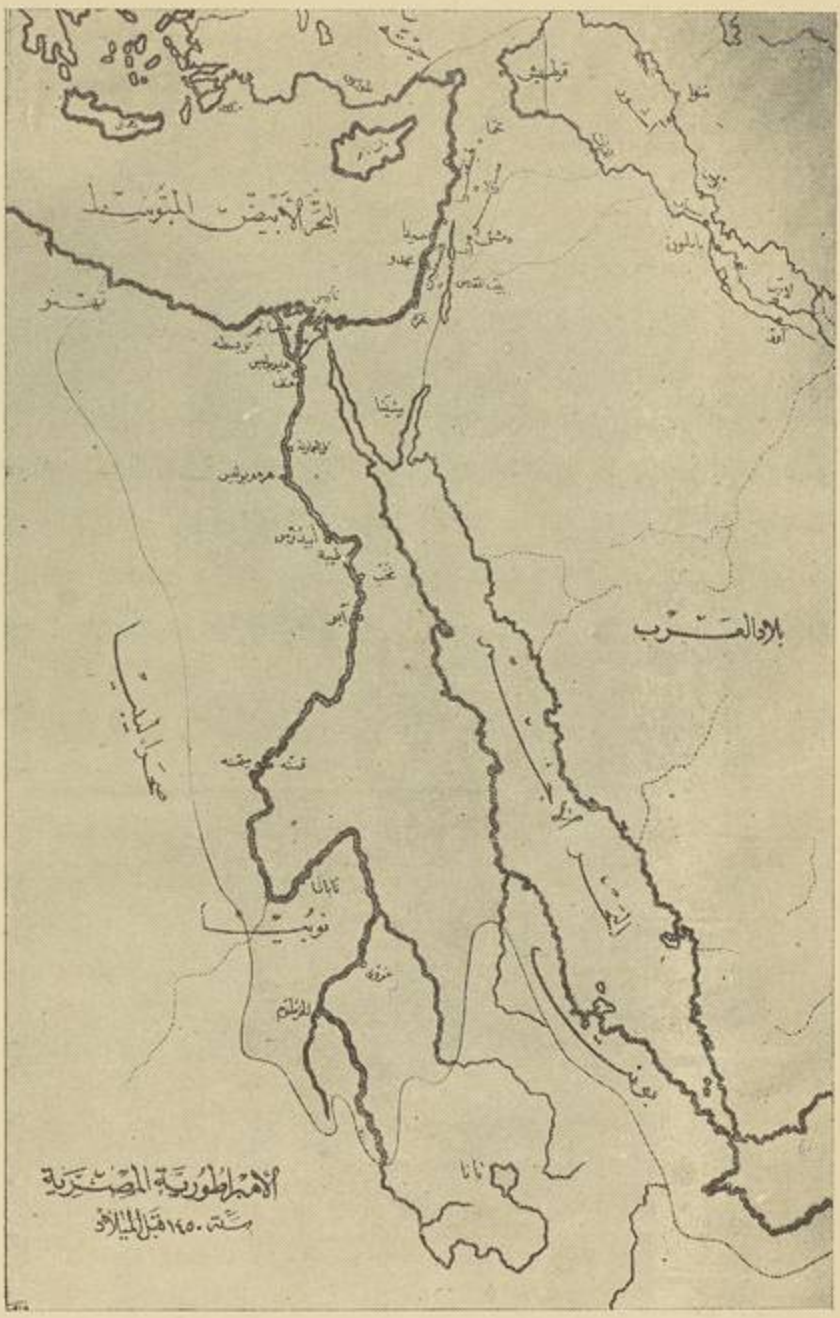
البحر الأبيض المتوسط
بلاد العرب
نوبيا
الامبراطورية المصرية
سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد

هكذا كانت مصر عظيمة بماضيها، كانت نبراسا للحضارات ومهدا للعلوم ومستق للفنون - تحطمت على صخرتها آمال الهكسوس والصليبيين. ووقفت عند حدودها جحافل الملوك فبهرت جميع أمم الأجيال القديمة بحضارتها ومجدها

سبقت مصر أمم العالم الى ميادين العلم والنور فى وقت كانت روما وأثينا واسبرطة ترقد فى أحضان الخمول والجهل . . مصر هى التى رفعت مشعل الحضارة للجنس البشرى واختطت له وسائل حياته .

مصر أول بلاد العالم جرت فى طرقاتها وصحاريها ووديانها العربات الحربية تحمل الأبطال الظافرين . . أحمس وتحوتمس ورمسيس وبسماتيك وصلاح الدين والظاهر بيبرس وعلى بك الكبير ومحمد على وابراهيم .

عمر التاريخ المصرى ستة آلاف سنة على وجه التقريب — وهذه المدة هى تاريخ الجيش المصرى أيضا ، وعلى عاتق جنود أبناء النيل عاشت مصر أمة مستقلة — وفى هذا الوادى السعيد تدفقت جحافل الجيوش المصرية لترفع علم مصر عاليا بين الأمم ، ولم تكن الرغبة فى توسيع الرقعة المصرية الدافع الأصلى للفتح والسلطان ، بل إن المصريين فى توسعهم كانوا أبداً دائبين للوصول الى الحدود الطبيعية .

ولتحقيق هذا الهدف اندفعت الجيوش المصرية منذ القدم نحو هضاب آسيا الصغرى وروابى الشام و بادية شبه الجزيرة والصحراء الليبية وأعالى النيل الى المحيط الهندى

هذا التاريخ المجيد إذا احييناه ووعيناه — وضعنا أسس مستقبل أمجد وأبهى ، نقيمه على ما فات ونصل به حاضرنا بماضينا .

* * *

ساعدت الطبيعة الجغرافية بلادنا أعظم مساعدة ، فكان من أشق الأمور وأصعبها إغارة الجيران المعادين عليها . وكانت صحراء ليبيا الى حد كبير سدا منيعا لكل غارة من جهة الغرب ، على حين أن سواحلها الشمالية لم تكن مصدر خطر كبير عليها .

ففى ذلك العهد من تاريخها لم يكن لها أعداء أصحاب أساطيل قوية تهاجم شواطئها المكشوفة . أما الأقوام الذين يقطنون وراء حدودها الشرقية والجنوبية فإنهم كانوا أقل منها ثقافة ومدنية فكان خطرهم على سلامتها شيئا لا يحسب له حساب .

ومرت على مصر فترات خمول أيضا كالتى مرت على جميع شعوب العالم — فليست هناك أمة خلقت قوية وظلت قوية طول حياتها ، بل ما من شك أن كل أمة قوية ينتابها بعض عوامل الضعف ، ومصر إحدى هذه الأمم — غزتها أقوام كان أولهم الهكسوس . فدانت لهم الأرض المصرية ولكن لم تعترف بسلطانهم على النفوس . ثم أعقب احتلالهم نهوض وتجديد فأضاف المصريون تراثا جديدا وأخذوا عن المحتلين بعض فضائلهم .

واذا عدنا الى عصر ما قبل التاريخ فسنجد مصر وقد غمرتها الحروب الداخلية والخارجية لأن ذلك لا ينافى طبيعة البشر . وقد عثر على بعض ألواح ترجع الى عصر ما قبل التاريخ يستدل منها على قيام حروب بين المصريين وبدو الصحراء وأهل بلاد النوبة — وكان النزاع لا يقف بين سكان الوجهين القبلى والبحرى الى أن وحدت الأرضان فى عهد الملك مينا . وقد عثر فى هيراكيوليس (اهناسيا) على نقوش ملونة يرتد عهدها الى ما قبل عهد الأسرات . وهى موجودة الآن فى المتحف المصرى . يشاهد عليها رسوم بعض المحاربين القدماء وهم فى ساحة القتال وتدل كيفية تسليحهم دلالة واضحة على تقدمهم فى فنون الحرب مما يثبت أنه كان لمصر جيش منظم . ونجد أن المحارب كان مسلحا بحربة فى نهايتها قطعة من الظران المدبب أو من العاج وكان يحمى الجندى منهم زرد أو درع مصنوع من جلد الفهد .

إن طبيعة مصر منذ القدم لا تسمح لها الا أن تكون أمة متحدة ، فهى من بين بلدان العالم القليلة التى يغذيها نهر عظيم يجرى من الجنوب الى الشمال . وأملت طبيعتها عليها أن يحكمها رجل واحد — فرأينا منذ بزغ التاريخ أميرا مصريا أصبح فيما بعد . الملك مينا . أسس ملكا عظيما

شدّه على أنقاض الحكومات المحلية فكان الرجل الأول الذى حكم مصر ولم يكفه تأسيس هذا الملك ، بل جعل حب الوطن إيمانا راسخا فى قلوب مواطنيه ، وجعلهم يؤمنون بأنهم أبناء وطن واحد. لا نعرف تماما كيف اتحدت مقاطعات الدلتا وألفت منها دولة الشمال . وكيف اتحدت أقاليم الصعيد وكونت دولة الجنوب . ولكن مما لاشك فيه أن هذا الاتحاد لم يتم بدون حرب ، ومن المحتمل أن تكون أول معركة مصرية حاسمة هى المعركة التى نشبت بقيادة مينا أول فراعنة الأسرة المصرية الأولى لما غزا البلاد الشمالية وأخضعها لسلطانه . وقام بعد ذلك بتثبيت عاصمة ملكه الجديد فى ذلك الموقع الهام "منف" عند رأس الدلتا بالقرب من ضاحية القاهرة القبلية "حلوان" الحديثة . واختلفت الآراء حول المعركة الأولى. وعن نوع الحروب التى تبعتها وهل كانت حروبا تشبه المعارك التى تقوم بين القبائل وبعضها أو كانت حروبا حقيقية كالتى عرفتها مصر أثناء القرون الطويلة ... واستنبط بعض علماء الآثار أن تلك المعارك القديمة كانت منظمة بلغ عدد ضحاياها ٦٢٥ قتيلا و١٤٢ أسيرا وأنه كانت تسودها إلى حد كبير روح حربية قوية .

وقد ترك لنا الفراعنة الأول أدلة كثيرة تشهد بأنهم كانوا يمجدون القتال ويفتخرون بالنصر فاننا نشاهد تذكارا لانتصارات الملك نارمر (مينا) مدونة على لوحة كبيرة من الشيست على أحد وجهيها يُرى رافعاً دبوسه ليضرب به أسيرا ربما كان من سكان الدلتا — والمنظر الرئيسى على الوجه الثانى يمثل الملك سائرا مع أتباعه ليشرف على الأسرى المذبوحين ، وقد سار حاملو أعلام المعبودات المختلفة أمام الملك . ويرى تحت هذا المنظر حيوانان خرافيان. ثم منظر الملك على هيئة ثور يهدم قلعة استولى عليها.

ولم يكن إخضاع إمارات الشمال أمراً سهلا ، فاننا نعلم أن الثورات الداخلية كانت تنشب بين حين وآخر . وكانت أعمال العنف مستمرة الى أيام الأسرة الثالثة المصرية . ونستنتج من قصص الأسرى المنقوشة على كثير من الآثار القديمة عدة أمور متعلقة بحروب الدولة القديمة .

إن اتفاق بعض المؤرخين على أن مصر تمتعت بنعيم السلام أحقابا طويلة حتى غزا الهكسوس الدلتا ليس معناه أن هذه الفترة من تاريخ وادى النيل كانت خالية من الحروب والانتصارات . ومما لاشك فيه أنه ليس فى الديانة المصرية إشارة أونصوص تحرم الحرب — ولم تخرج مصر للعالم منذ القدم نبيا أو مصلحا هاجم الحرب فى تعاليمه أو وصاياه فقد كان فراعنة مصر أبطالا محاربين يتباهون بجنودهم فيما دونوه على نقوش الجرانيت وكانوا يحبون الموت فى سبيل الدفاع عن أوطانهم أو عند ما يقاتلون دولة معتدية وكانت الآلهة المصرية تحبب الى الفراعنة القتال ومخاصمة الأعداء كما أنها ألهمتهم الانتصار، وإن النصوص التى تقرؤها على المعابد والهيا كل القديمة التى شيّدها الملوك المصريون بعد عودتهم ظافرين من ساحات القتال لخير شاهد على تمجيدهم للحرب . فقد كانت عقيدة سامية حازت رضاء الآلهة .

ولئن كان هناك نعيم دنيوى فلا شك أن مصر كانت جنة هذا النعيم . بجوها المعتدل وسماؤها الصافية وجمال طبيعتها الدائم وشمس شتائها الساطعة تضاف الى تلك الخيرات هبة نيلها المباركة .

كل هذه الفضائل جعلت مصر وحيدة فى خيراتها مطمئنة فى حياتها ، وبصحرائها صارت بعيدة عن جشع أعدائها فقد كانت الصحراء كما هى اليوم على ضفتى النيل حارسة لمصر تحميها من — أعدائها — فى عصر كان بحر الروم لا يحمل على صدره مشكلات المدرعات وحاملات الطائرات كما غدا اليوم . فلماذا أراد المصريون الحرب وهم يتمتعون بهذا النعيم . وما الذى دفع جيوش مصر لفتح بلاد الدول المجاورة ؟

لقد كان لزاما على أهل مصر أن يحافظوا بحياتهم وبكل عزيز يملكونه على هذا الشريط السندسى الذى ما زلنا الى اليوم نحميه ونقيه بكل عزيز . يحمونه من غارات أهل البادية والقبائل الهمجية من أهل الجنوب — ومن هنا نشأ أول تدريبهم على القتال بعد أن ألفوا وحدتهم .

وقد أدرك المصريون منذ البداية أن الصلة وثيقة بينهم وبين بلاد النوبة وشمال السودان فنشأت وحدة وادى النيل كما أدركوا أن بلاد الشام ترتبط بمصر بأعظم الروابط — حتى لقد قيل إن حدود مصر تمتد حتى شمالى بلاد الشام ، فليس غريبا إذن أن كانت النوبة والشام مسرحين للحروب فى عصور الامبراطورية المصرية القديمة .

المملكة المصرية القديمة

الأسرات الثلاث الأولى

لا نعلم شيئا كثيرا عن جيش الملك مينا بعد قضائه على حكم الأمراء منذ أصبحت مصر كلها فى قبضته، وليس لدينا من الآثار ما يدلنا على وجود جيش موحد للبلاد المصرية قبل عهد الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة. فانه لما وطد السلطة الإدارية فى يده كان يعتمد على جيش أشرفت عليه إدارة منظمة. والملك زوسر أول من نظم وسائل الدفاع عن مصر فقسم حدود البلاد الى مناطق أطلق عليها اسم أبواب المملكة. وجعل فى كل منها حامية وعين على كل من هذه المناطق حاكما خاصا يلقب "بمرشد الأرض" وكانت لهؤلاء الحكام الكلمة العليا على حكام المقاطعات وكانت فى يدهم إدارة الشرطة كل فى مقاطعته ولذلك كانوا مسئولين عن النظام والأمن فى هذه المناطق، وكانت تلك المناطق تخضع مباشرة لهذا الموظف. وقد شيدت لتلك الحاميات العسكرية حصون منيعة لحماية الأقاليم والدفاع عنها وكان فى كل حصن مسلحة من الجند تقوم بأعمال الخدمة وتخزين المؤن التى تكفى الجند مقاومة الحصر مدة طويلة، وقد حفظت لنا أسماء بعض هذه الحصون منذ الأسرة الثانية — فقد عثر فعلا على نقش عليه اسم حصن "سخرحتب" وكذلك عُثر على اسم حصن آخر من الأسرة الثالثة نقش على خاتم لكاتب هذا الحصن.

وإذا كان الزمن لم يُبق على شىء من الحصون المصرية التى شيدت خلال الدولة القديمة فإننا نعرف منها حصنا أقيم فى العرابة يعد من أقدم الحصون المصرية. وقد عرف المصريون القدماء كيفية انتخاب المواقع الحسنة لبناء تلك الحصون والمعاقل فكانوا يقيمونها فى الأماكن التى يرون أنها معرضة لخطر الغزو. أو أنه يمكن أن يصد العدو منها بسهولة كمخانق النهر حيث تضيق الجبال على كلا جانبى الوادى، أو عند بداية الوديان

التى تشرف على الصحراء مباشرة والتى يسهل على البدو وغيرهم أن ينقضوا منها على البلاد وينهبوا منها ما يشاءون .

كانت كل هذه الحصون " أبواب المملكة " مقامة على طراز واحد لاتختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا فى مقدار مساحة كل حصن وسمك جدرانه الخارجية . وكان تخطيط الحصن يشبه سطحا متوازى الأضلاع . وكان سوره الخارجى فى أغلب الأحيان مقسما الى دعامات عمودية من المبانى تربطها مداميك البناء باللبن .

وقد حصّن المصريون القدماء بلادهم بما شيّدوه من الأسوار الضخمة فى النقط الضعيفة من الحدود فبنى الملك "زوسر" سورا من أسوان الى الفيله يبلغ طوله نحو ١٢ كيلومترا يضمن السيطرة على منفذ هام فى الحدود الجنوبية. ويعتقد بعض علماء الآثار أن السور العظيم الذى أقامه أمينمحعت الأول على حدود الصحراء شرق الدلتا لم يكن إلا تجديدا لسور أقيم فى عهد الدولة القديمة . وقد خلد الملك " سنفرو " اسمه على عدة قلاع فى تلك المنطقة . فكان أول من حصّن حدود مصر الشرقية . وشيّد الملك سنفرو خلال حكمه وبعد انتهائه من محاربة الزنوج سلسلة منظمة من الأعمال الدفاعية فى شمال مصر وضواحيها وقد عرفت تلك الحصون باسم قلاع سنفرو .

(المحاربون المصريون القدماء فى طريقهم إلى الظفر)

الجيش فى الدولة القديمة

كان الجيش خاضعا للملك. وكانت وحدة القتال يطلق عليها "عبر" تتكون من الجنود الشبان و يقود الوحدة ضابط — و يسمونه "خرب" والظاهر أن هـذا الاسم كان يطلق على الموظفين الإداريين الذين توضع تحت إشرافهم فئة من الناس .

وفى أواخر أيام الملك سنفرو من ملوك الأسرة الثالثة — بلغت مصر درجة رفيعة من الرقى . فقد أخضع بدو سيناوسجل انتصاراته على صخورها ووطّد سيادة مصر على ذاك الأقليم . وقد اعتبر فى العصور التالية المؤسس الأول لنفوذ مصر فى سينا .

ومما لا نزاع فيـــه أنه كان هناك تبادل بين الوظائف الإدارية والوظائف العسكرية .وقد تألف الجيش من عدة فيالق : كل منها على رأسه قائد جيش "أمر مشع" وكانت كل هـذه الفيالق تحت إمرة رئيس أعلى يطلق عليـه قائد الجيوش الأعلى . وكان يتقلد هذه الوظيفة رجل من أكبر عظماء الدولة وقد وصـل إلينا اسم اثنين ممن تولوا هذا المنصب فى عهد الأسرة الثالثة أحدهما "رع حتب" أحد أولاد الملك والثانى "نيسو زدف" وهو أمير ماكى .

وفى عهد تلك الأسرة كانت الإدارة العسكرية تسمى "بيت الأسلحة." وكانت مهمة هـــذه الإدارة الإشراف على تنظيم الجيش وتموينه وأعمـاله الكتابية .

---

(١) الدكتور سليم حسن — مصر القديمة — جزء ٢

الأسرة الرابعة

(٢٩٠٠ — ٢٧٥٠ ق . م)

شغل ملوك هذه الأسرة ببناء أهراماتهم فلم تصلنا أنباء فتوحاتهم ، ولكن النظام الإدارى للجيش لم يتغير عما كان معروفا أثناء الأسرة الثالثة وكان قائد الجيش البرى هو قائد الأسطول أيضا . وقد عرف "تيتى" أحد عظماء الدولة القديمة بإمرته للبر والبحر . وكان لفرق الجيش ولكل وحدات الجنود هيئة ادارتها المؤلفة من كتبة ، وقد حفظت لنا النقوش اسم أحد هؤلاء المديرين وهو "عانحى" الذى كان يحمل لقب مدير كتبة الفرق وكان مكلفا بتجنيد العساكر و إدارة شؤونهم فى مديريته .

الأسرة الخامسة

(٢٧٥٠ — ٢٦٢٥ ق . م)

مد "أوسركاف" ملكه إلى جنوبى الجنادل الأولى ولم يطرأ شىء جديد على الجيش فى عهد هذه الأسرة فقد كان مؤلفا من مجندين كان يطلق على الواحد منهم فى هذا العهد " الشاب الجميل " وتتألف منهم وحدات كل منها تحت إمرة ضابط يحمل لقب رئيس الوحدة ومن هذه الوحدات مجتمعة كانت تتألف كتائب الجيش (عبر مشع) وعلى رأسها قائد يحمل لقب قائد كتائب الجيش .

وكان الجيش فى أوقات السلم يقوم بحفظ الأمن والنظام فى داخل البلاد. وكانت ترسل منه أقسام للعمل فى محاجر سينا والحمامات ومحاجر طره .

وقد عنى بتدريب الجنود عناية فائقة . فكانوا يتلقون دروسا حربية ويتدربون على التمارين العسكرية تحت إشراف إدارة خصصت لهذا وقد وصل الينا أسم " كام ثنت " الذى كان يحمل لقب قائد جيوش البر

والبحر ومدير التعليم للجيش وكان أكثر رجال التاريخ القديم يعتقدون أن الجيش المصرى كان مؤلفا من جماعات من الرجال المسلحين يقود كل جماعة منهم سيدهم . ولكن الحق يقال إنه كان جيشا حكوميا مؤلفا من وحدات حربية تحت إشراف ضباط فنيين . لا يقومون بأى عمل مدنى وكان مظهر الجند فى السلاح واللباس واحدا فى كل وحدة من وحدات الجيش — ونجد ما يؤيد قولنا فى الرسوم التى عثر عليها فى معبد الفرعون "سحورع" إذ نرى مناظر الجنود يخطون خطوات حربية وكلهم مسلحون بعدة واحدة قابضون على سلاحهم بنظام واحد . وقد أرسل "سحورع" من ملوك هذه الأسرة أول حملة إلى بلاد بنت (اريتريا) كما أرسل حملة إلى سيناء وأخرى إلى الشام .

الأسرة السادسة

(٢٦٢٥ — ٢٤٧٥ ق . م)

وفى عهد الأسرة السادسة كان الجيش المصرى يشتمل عدا الوحدات المجندة على جنود مرتزقة وكان يقود الكل قائد الجيوش العام ، ومع ذلك فإن الجيش الوطنى كان يؤلف وحدة تحت إمرة قائد لقبه "مدير رؤساء المجندين" وهو لقب كان يطلق على قيادة الجيش النظامى المؤلف من كتائب جنود مصريين ، وكان قواد الجيش ينتخبون من بين كبار الموظفين أو أمراء الأسرة المالكة ، وكان معظمهم يحملون الألقاب الملكية العظيمة مثل "الذى فى قلب الملك" ومن قواد الأسرة القائد "سشمو" — ولعل الفراعنة كانوا يبتغون من وراء تعيين أمراء فى الأسرة المالكة قوادا للجيش أن يحتفظوا بالسلطة المباشرة على قواتهم المحاربة . ومهما يكن من شىء فقد وصل الينا اسمان من أسماء قواد الجيش فى بداية الأسرة الثالثة وكان هذان القائدان من الأسرة المالكة .

وكان من اختصاص بيت الأسلحة علاوة على بناء المعاقل . . وصنع السفن إدارة شؤون الغلال التى كانت معدة لتموين مصلحة الأعمال الحربية

وخزن ما يلزم من المؤن فى القلاع ، وتجهيز الجيش بالسلاح والملابس والطعام والمعدات اللازمة للقتال . فلم يقم الجيش المصرى على السخرة أو على السلب ، بل كان يعتمد فى وقت الغزو فى عدته وعتاده وطعامه على الإدارة الحربية .

وقد قص القائد "أونى" أثناء الحملات التى كان يقودها — فى نهاية الأسرة السادسة — أن تموين الجيش كان على أحسن ما يرام حتى أنه لم يوجد جندى اغتصب فى طريقه حذاء أو نعلا ، ولم يكن من بينهم من من أخذ عمدا ملابس من أى بلدة كانت ، ولا من اغتصب معزا من أى شخص كان . وفى خلال حملة حربية أرسلت الى خليج العرب فى عهد الملك " أمحوتب " أحد ملوك الأسرة السادسة وضعت إدارة الجيش تحت تصرف الجنود والعمال نحو خمسين ثورا و ٢٠٠ من الماعز لمؤونتهم .

ولم يطرأ تغيير على نظام الجيش فى عهد الملك " تيتى " ولكن يظن أنه حدث انقلاب فى عهد بيبى الأول فى نظام الجيش بسبب انحلال الدولة وتقسيمها الى مقاطعات مستقلة . فأصبحت الوظائف الحربية وراثية تقريبا . ولذلك نجد أن " أبدو " الذى قاد حملة الى سينا فى العام التاسع عشر من حكم "بيبى الأول" كان يحمل لقب قائد الجيش . الذى كان يلقب به والده (مره رع عنخ) من قبله ، والملك بيبى الأول ملك من طراز أحمس الأول وتحوتمس الثالث ورمسيس الثانى من أعظم ملوك الأسرة السادسة التى حكمت مصر نحو مائة سنة . بين عامى ٢٦٢٥ ، ٢٤٧٥ ق.م وقد حكم وحده نحو نصف قرن .

ومن أهم مخلفات عصر هذا الملك النقوش التى تركها لنا القائد "أونى" الذى عاصر أكثر من ثلاثة ملوك . وقص علينا فيها كل ما كان يقوم به من جليل الأعمال وما ناله فى عهد كل فرعون من الرقى .

قال القائد :

"لقد قام جلالته بحملة تأديبية ضد الأسيويين رؤساء الرمال وقد جهز جلالته جيشا مؤلفا من عشرات الآلاف من الرجال من كل الوجه القبلى من ألفنتين فى الجنوب حتى أطفيح شمالا وقد جندتهم إدارة جيش المرتزقة بأجمعهم فى القاعة وقد وضع جلالته الجيش تحت إمرته . على حين أن فيه الأمراء ، وحاملى خاتم الملك فى الوجه البحرى ، وأصحاب القلاع العظيمة ومديرى القوافل ومدير الكهنة ومديرى الجيوش المرتزقة . وكان كل منهم على رأس فيلق من تلاع الوجه القبلى والبحرى والضياع التى يحكمونها . وقد كنت أنا الذى أسهر على نظامهم على رغم أنى كنت مدير أوقاف القصر و بسبب مكانتى لم يأخذ أحد شيئا من جاره ولم يسرق واحد منهم خبزا أو نعلا من السابلة ، ولم يأخذ فرد منهم ملابس من أية بلدة ولم تغتصب ماعز أى رجل ، وقد قدت هؤلاء الجنود بطريق جزيرة الشمال و بوابة (المحوتب) واستعرضت كل فيلق من هؤلاء الجنود أمامى".

ثم يقول ... ... "لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن خرب بلاد العدو . لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن نهب بلاد سكان الرمال . لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن أزال قلاعهم . لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن قطع أشجار تينهم وكرومهم . لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن حمل الحديد والنار بين سكانهم . لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن ذبح كل جنودهم . لقد عاد هذا الجيش سالما بعد أن جاء معه بجنود عدة أسرى .

ولقد أثنى علىّ بسالته أكثر من أى شخص".

وقاد القائد "أونى" أول حملة إلى فلسطين وكانت الأولى من نوعها لاشتراك سفن البحر مع الجيش البرى ، ولما تولى الملك مرن رع الحكم عين "أونى" حاكما ومسيطرا على الوجه القبلى بلقب "حاكم الجنوب" وكان أهم عمل له هناك حفر خمس قنوات عند الشلال الأول لتسهيل

سير السفن التى كانت تعترضها الصخور فمهّد الاتصال ببلاد السودان والأقطار الأفريقية .

وقد قام "أونى" بثلاث حملات قصد فى الأولى والثانية منها إلى بلاد (ايام) التى قامت ضد بلاد لوبيا (تمح) وفى الثالثة قصد لوبيا وأخضعها .

ثم تعاقبت على الحكم أسرات ضعيفة إلى أن أتيح للأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٨٨ ق . م) أن تكون لها مجدا كبيرا فى عهد أمنمحعت الأول والثانى والثالث ، ولكن إلى حين ، إذ مالبث أن أفل نجمها . وقامت على أنقاضها الأسرة الثالثة عشرة ضعيفة مضمحلة . فانفصل عنها الجزء الشمالى ، حيث تكونت الأسرة الرابعة عشرة ثم تغلب ملوك الرعاة (الهكسوس) وملكوا البلاد حوالى مائة وخمسين سنة [1] وأسسوا الأسرة الخامسة عشرة وفى خلال هذا العهد المظلم تعلّم الشعب المصرى الذى لم تتغير نفسيته بالرغم من المحن التى ابتلى بها أثناء احتلال الهكسوس دروسا جنى ثمارها فيما بعد لما اشتد القتال بقيادة أمير (سفن رع الأول والثانى) حتى إذا جاء عهد الملك سفن رع الثالث كانت الحرب قد اشتد أوارها — اندلعت ألسنة الحرب واستمرت سجالا بين الفريقين . وقاد سفن رع الثالث الجيش المصرى والتقى بالعدو وتطاحنا بالقرب من الأشمونين وإذا بسفن رع الثالث يقع شهيد وطنيته قتيلا فى ميدان الحرب فخلفه ابنه البطل "كاموزى" الذى قاد رجاله ونجح فى التغلب عليهم وطردهم من بعض المدن التى كانوا يحتلونها .

مات كاموزى فتولى القيادة ملك جديد هو أحمس الأول أصغر أبناء (سفن رع) الثالث وأشجعهم . فضرب الهكسوس الضربة القاضية وخلّص مصر منهم ورد إليها سيادتها .

---

(١) شعب سامى موطنه الأصلى فلسطين . ومن المحتمل أن يكون من اليهود . ويرجح هذا الرأى المؤرخ مانيتو .

لم يغير هؤلاء الهكسوس حياة البداوة التى عاشوا عليها فلم تتغير طباعهم أو نظمهم ، بل ظلوا على طبيعتهم يميلون إلى حياة البادية ولم يشيدوا الدور أو الهياكل وعاشوا بعيدين عن المصريين لا يعرفونهم وكانت جل أعمالهم جمع الضرائب بقسوة و بدون عدل فكرههم المصريون وأضمروا لهم العدوان وكان كل مصرى ثائرا عليهم .

كان الاتحاد والوطنية قاضيين على حكم الرعاة بعد أن انغمسوا فى الرفاهية والترف فانحطت نفوسهم وفقدوا صفاتهم الحربية الأولى إلى أن طردهم أحمس من البلاد شر طردة وكان من وراء روح التجديد الوطنى الذى بدأته فى الحقيقة " تيتى شرى " جدة أحمس فى مصر ، والحروب التى قامت بها وخلفاؤها لمناوأة الهكسوس أن تخلص المصريون من هذا العنصر المحتل وطاردوه إلى سينا على أيدى أحمس كما رأينا ثم قام خلفاؤه من بعده بملاحقة هذا العدو فى سوريا .

عرف أحمس كيف يستخدم تلك الروح الوطنية التى كان قد بثها فى صدور جنوده عقب تخليص وطنهم من المغيرين . فأنشأ أول جيش للبلاد يمتاز جنوده بخدماتهم الطويلة وذلك لكى يحقق مطامعه فى الفتوحات السورية وكان الجيش ينقسم إلى قسمين : القسم الأول من الجيش للخدمة فى الميدان السورى ، والقسم الثانى من الجيش للخدمة فى مصر وليكون فرقا احتياطية للجيش الأول .

ثم توطدت أركان الدولة المصرية ونظمت طبقات الشعب . وعم الأمن البلاد وامتلأ الوادى الجميل بالآثار الفخمة والمعابد العظيمة والتماثيل الرائعة ، و نظمت وسائل الرى وتقدمت الزراعة ومهدت الطرق وقويت الجسور . وشيد خزان لمياه النيل المتدفقة فى بحيرة مويس ، وكانت فى الامبراطورية المصرية ثلاث سلطات : الملك ورجال الجيش ورجال الدين ، فكان

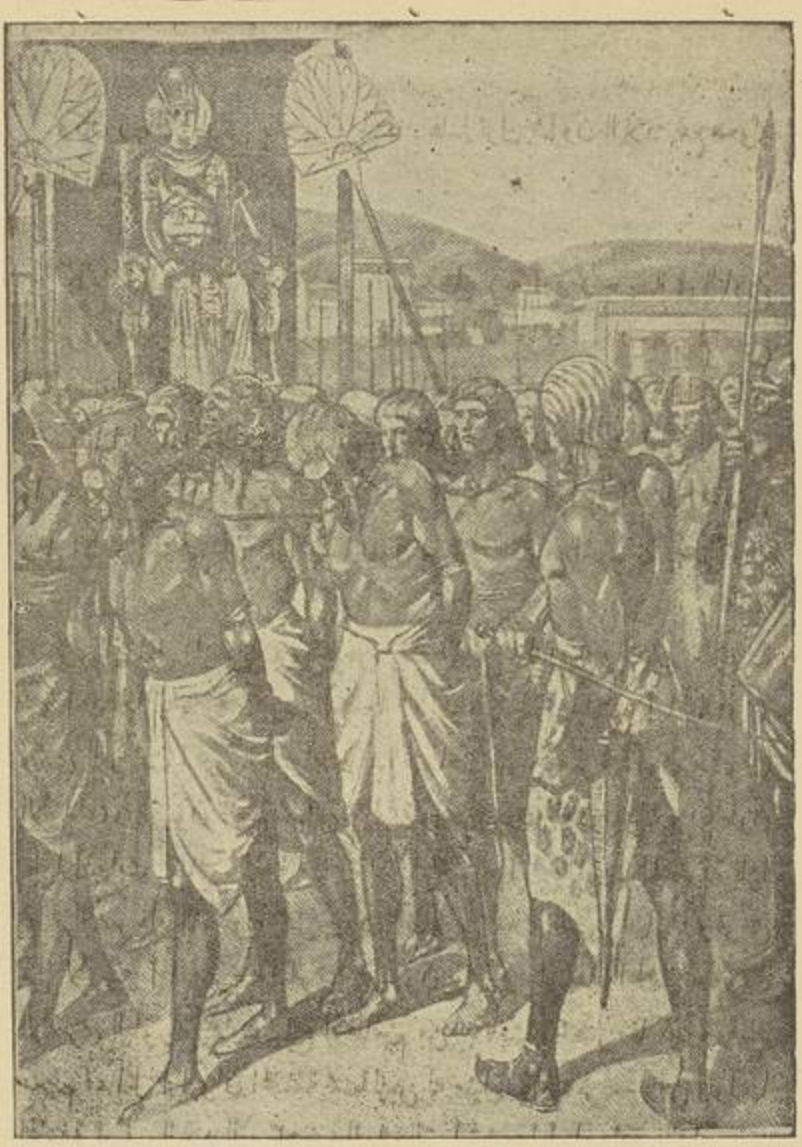

فرعون يستعرض أسرى الأعداء

الملك يستمد سلطانه من الآلهة مباشرة وكان إلى جانبه مجلس مؤلف من رجال الدين يستشيرهم فى حل المشكلات .

وكان رجال الجيش ينتخبون الملك . فاذا تولى شؤون البلاد جمع حوله رجال الدين وأمراء البلاد .

كانت المدة التى أعقبت عصر النهضة المصرية أروع حقبة فى التاريخ المصرى. فقد أثار طرد الرعاة روحا وطنية وحماسة قوية — فان مصر لم تصبح أمة مستقلة فحسب ، بل صارت أمة فاتحة تريد أن تتبوأ مكانتها التى تليق بنفسيتها الجديدة فاجتاحت جيوشها هضاب آسيا إلى شواطئ الفرات واكتسح أسطولها الناشئ جميع الممتلكات التى فى طريقها إلى المحيط الهندى. وعلى الآثار نستطيع أن نقرأ ونشاهد أنباء تلك الفتوح المصرية .

ترى المحافل المصرية بتواتها من حملة الرماح والدروع والقسى متجهة نحو أهدافها الحربية فتذوب أمامها الأعداء كما يذوب الثلج أمام النار ، وترى العربات الحربية الثقيلة ، وقد امتطاها جنود مصر فيشقون صفوف الأعداء ، ويقضون عليهم بسهامهم المميتة ويحاصرون المدن المنيعة ويسلطون عليها أدوات القتال والقذائف وسلالم الحصار وأبراج الموت المتحركة فاذا تم لهم النصر عاد الفرعون يحمل جنوده الظافرين أعلام النصر بينما يعدو فريق من الأسرى أمام عربته الحربية يمسكون بها . ويتلو هذا الحفل صفوف الأسرى الطويلة يحملون نتاج أوطانهم من نباتات وخضر وفاكهة ، وتسير معهم فصائل الحيوان المختلفة مما ليس له مثيل فى مصر — ومن أنواعها المختلفة تعرف البلاد التى تنسب إليها والتى أخضعها أبناء وادى النيل .

فاذا وصلت مواكب الفرعون ظافرة إلى مصر شيّد الملك معبدا عظيما من الجرانيت أو الحجارة الكبيرة ، وزيّن مدخله بالمسلات الجرانيتية

الخضراء — أمامه طريق صفت على جانبيه تماثيل أبى الهول، ثم قام الفنانون بمساعدة رجال التاريخ والعسكريين بتدوين أنبائهم العسكرية وحوادث الحملة الحربية ليخلدوا ذكرهم على مر الزمان .

والحق أن أنباء الانتصارات الحربية التى تألق فيها نجم الفراعنة كانت أعظم الموضوعات التى خلدتها النقوش الجميلة على العمائر المصرية القديمة

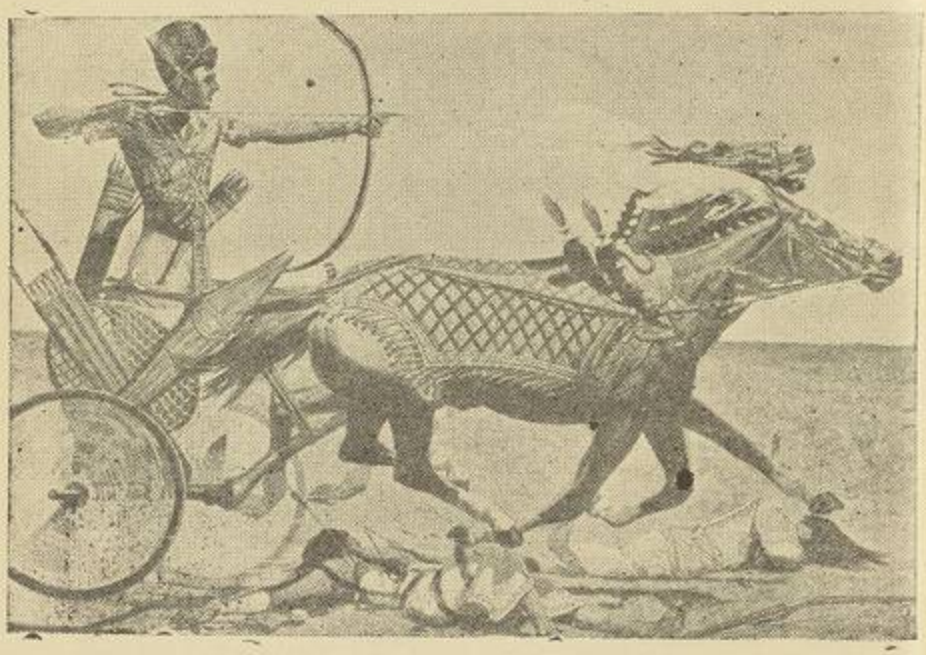

قائد على مركبته الحربية فى ميدان القتال

الامبراطورية المصرية الأولى

الأسرة الثامنة عشرة

(١٥٨٠ — ١٣٥٠ ق . م)

كان أول ملوك هذه الأسرة العظيمة "أحمس" طارد الهكسوس من وادى النيل، وجاء من بعده أمنحعهت الأول. ثم تحوتمس الأول الذى وصل بفتوحاته لى جنوبى الجنادل الثالثة . وغزا سوريا ووصل بجيوشه الى نهر الفرات ، حيث أقام نصبا تذكاريا، ثم خلفه تحوتمس الثانى — فالملكة حتشبسوت.

فى هذه الآونة قويت الروح العسكرية فى صدور أبناء الشعب المصرى . وبهذه الروح سار الملك الشاب تحوتمس الثالث على رأس جيشه العظيم الى معركة مجدو الأولى حيث وضعت قواعد فن الحرب، وهى القواعد التى اتبعها القواد فى حروبهم المتتالية فى الشرق الأدنى . والتى أفاد منها قواد الجيوش الحديثة عند ما التقت جموعهم فى الشام فى الحرب العظمى الأولى .

وقد حارب تحوتمس الثالث أمراء سوريا عشرين سنة متتالية فى سبيل تثبيته سلطان مصر فى هذه الأصقاع .

اعتلى تحوتمس العرش سنة ١٥٠١ ق . م وأخذ يعد للحرب عدتها حتى كانت سنة ١٤٧٩ ق . م فقام من مصر ماراً بالأماكن التى تعرف الآن باسم غزة حتى وصل الى يحيم وعرونة على نحو عشرة أميال الى الشمال من طولكرم، وكان أمام تحوتمس ثلاث طرق للوصول الى مجدو حيث كان يعسكر أمير قادش، ومن معه من أمراء سوريا الوسطى وأمراء الكنعانيين فى فلسطين، وكان هذا الأمير قد أقام فى مجدو ليدفع أى خطر — والطريق الأول يتجه الى الشرق ويمر من طولكرم ونابلس وبجنين والطريق الثانى يؤدى الى الغرب ويمر بوادى الروحة الى مكان على نحو سبعة أميال شمال مجدو[1] أما الثالث فهو طريق وعر ضيق صعب التسلق ينتهى أمام مجدو .

(١) تقع مدينة مجدو على بعد خمسة عشر ميلا جنوبى مدينة الناصرة بفلسطين

أراد الأمراء المصريون اتباع إحدى الطريقين الأولين بيد أن تحوتمس أصر على عبور الطريق الثالثة وسار فى طليعة جيشه حتى أشرف على مجدو بعد أن استغرقت رحلته نصف شهر مايو. وأمام أسوار مدينة مجدو المنيعة التى احتمى بداخلها ملوك سوريا وأمراؤها خاطب تحوتمس جنوده قائلا: "إنكم ان انتصرتم اليوم على أعدائكم قضيتم على ألف مدينة وألف ملك" مشيرا الى الحلف الذى تم قبيل تلك المعركة بين ملوك البلاد وزعمائها تحت زعامة ملك قادش لصد زحف المصريين، ولكن أنى لتلك القوات المفككة أن تقف فى وجه الفاتح العظيم وجيشه المنظم المتحد تحت قيادة واحدة.

استعد الجيش المصرى فى ذلك اليوم للكفاح، وفى صبيحة اليوم التالى التقى الجيشان المصرى والسورى فتغلب الأول على الثانى. ولف فى خط الى شمال مجدو، ثم تغلب القلب بقيادة تحوتمس نفسه ودحر السوريين واشتغل المصريون بالغنائم فتمكن أمير قادش ومن معه من السيطرة على الموقف داخل مجدو فحاصر الملك المدينة الى أن سلمت اليه. وقد غنم المصريون ٢٩٤ مركبة حربية بعضها مذهب و ٢٠٠ درع، ودونت هذه الأسلاب فى هيكل آمون بطيبة. وعامل المصريون الاسرى بالحسنى كعادتهم. وأتم تحوتمس بعدها سيره الى فينيقيا واحتل صور.

وهكذا ظفرت مصر وأسست امبراطوريتها الأولى فى الشرق الأدنى.

(رمسيس الثانى راكبا عجلته الحربية يحارب الليبيين)

الأمبراطورية المصرية الثانية

الأسرة التاسعة عشرة

(١٣٥٠ — ١٢٠٥ ق . م)

فاذا انتقلنا من فتوحات تحوتمس الثالث والذين خلفوه من فراعنة الأسرة الثامنة عشرة أمثال تحوتمس الرابع وأمنحتب الثانى والثالث وجدنا الامبراطورية المصرية الأولى فى أزهر عصورها حتى يحكم البلاد أخناتون (امنحوتب الرابع) فيشتغل بالأمور الدينية ويبدأ انحلال السيادة المصرية فى آسيا إلى أن تنتهى فى عصر توت عنخ آمون — وسرعان ما يقوم البطل الجندى حور محب فيؤسس الأسرة التاسعة عشرة على أنقاض سابقتها ويصلح ما أفسده أسلافه ويعيد تنظيم الامبراطورية الثانية وكانت أهم حملاته فى بلاد النوبة .

وبموته يعتلى العرش رمسيس الأول ثم سيتى الأول الذى استرجع فلسطين وأخضع البدو والفينيقيين . ثم واصل سيره حتى التحم بالحيثيين وعقد معهم محالفة ، وفى ذلك الحين تستعيد مصر مجدها على أيدى البطل رمسيس الثانى (١٢٨٨ — ١٢٧١ ق.م) بطل معركة قادش التى مازالت مخلدة على جدران المعابد المصرية شعرا ونثرا .

اتبع رمسيس الثانى فى هذه الحملة خطة سلفه العظيم تحوتمس الثالث فاستولى على مدن الشاطئ السورى ليتخذها قواعد لتحركاته فى داخل البلاد وليحافظ على سلامة المواصلات بين جيوشه ومصر .

وفى السنة الخامسة من حكمه كان على رأس جيشه العظيم يخترق به سهول سوريا . وهناك على إحدى الصخور المطلة على نهر الكلب سجل وصوله إلى تلك المنطقة . وكان ملك الحيثيين قد جمع جيشه وقوات الأمراء الذين انضموا اليه حول موقع قادش المنيع .

وكان جيش مصر مؤلفا من عشرين ألف مقاتل فى أربع فرق . هى آمون ورع وبتاح وسوتيخ — وكان رمسيس الثانى يقود فرقة آمون وحوله رجال الحرس .

تظاهر الحيثيون بالانسحاب أمام الفرقة المصرية الأولى . وقد نصبوا شركا لها كاد يفنيها عن آخرها . فخدعت القيادة المصرية . وتقدم رمسيس الثانى متجها نحو قادش . بينما كانت تفصله مسافات طويلة عن الفرق الأخرى . وكان الحيثيون وحلفاؤهم مختفين وراء قادش . فلما شاهدوا فرقة رع مواجهة لقادش وبالقرب منها أسرعت مركباتهم الحربية وبهجوم مفاجىء شديد شطرت الفرقة المصرية إلى شطرين . وكادت تقضى عليها . واتجهت بخفة — قوات الحيثيين الى معسكر فرقة آمون . التى كانت وقتئذ تحاول الراحة من متاعب السفر وهزمتها . وكاد يقضى على الملك نفسه لولا شجاعته وبأسه . فإنه لم يتردد لحظة فيما يجب عليه عمله . وحاول اختراق صفوف أعدائه المحيطين به ليلحق برجاله . فامتطى مركبته التى كانت بانتظاره . وقاد بنفسه حرسه وبعض الضباط والجنود الذين على مقربة منه . وهجم بشجاعة على جموع الحيثيين المتدفقين على معسكره .

وفى ذلك الوقت وضح له أن جنود العدو فى الغرب الجنوبى كثيرة العدد ولا أمل فى اختراق صفوفها . فعاد إلى معسكره . وقد تأكد له أن أضعف قوات العدو هى التى فى الشرق . عند ذلك أسرع نحو قوات الشرق وفاجأها بخفته فارتبكت وألقاها فى النهر . واستمر رمسيس فى هجماته المتابعة حتى شتت شمل أعدائه .

وفى مكان آخر من ميدان المعركة تهافت الحيثيون على ما خلفته الجنود المصرية من العتاد وشغلوا فى جمعها . بدلا من مطاردتهم والقضاء عليهم . وكان فى وسعهم أسر رمسيس الثانى واتفق أنه فى الوقت الذى كان الأعداء ينهبون معسكر المصريين أن وصلت إمدادات جديدة مصرية غير رجال فرقة رع . فانقضت على الحيثيين وحاصرتهم وأفنتهم .

ولا شك أن هجوم رمسيس الشديد بجهة نهر الاورنت والمباغتة التى قامت بها فرقة الإمداد . أنقذت الموقف المصرى وأنعشت الروح المعنوية فى الجنود كما أنها أضعفت من معنوية العدو وأعطت فرصة لرمسيس للم شعث قواته وتحسين موقفه . ودام القتال بين الفريقين حوالى ثلاث ساعات . وصل فى خلالها جنود فرقة بتاح و بتدخلهم وقع الحيثيون بين قوتين مصريتين. فاضطروا الى الإنسحاب إلى قادش بعد تكبدهم خسائر فادحة . ولم تغرب شمس اليوم حتى ظفر رمسيس وارتد الأعداء .

وهكذا كتب الظفر لجيوش مصر فى أهم معارك التاريخ القديم .

وهذه الحرب و إن لم تحقق كل آمال رمسيس الثانى فقد خرجت منها مصر مرفوعة الرأس محتفظة بكرامتها بمعاهدة عقدتها مع الحيثيين وكانت أول معاهدة صداقة بين مصر ودولة أسيوية .

و إلى اليوم نجد على الوجه الخارجى لأحد جدران معبد الكرنك نص معاهدة السلام المذكورة .

و بانتهاء حكم الأسرة التاسعة عشرة نصل إلى رمسيس الثالث من ملوك الأسرة العشرين الذى هزم الليبيين وسكان جزر البحر المتوسط ونظم ممالكه الأسيوية وحصن حدودها .

و بسط رجال الدين نفوذهم . فحكموا البلاد فترة من الزمن . وفى ذلك الحين اشتد ساعد بعض رجال البلاط من الليبيين واستطاعوا أن يقبضوا على زمام الحكم . وانتقلت إليهم سيادة البلاد نحو قرنين . والواقع أنهم لم يؤثروا أدنى تأثير فى قومية المصريين ، بل حدث أنهم تطبعوا بطباع المصريين وحافظوا على العادات والألقاب الأهلية. وعبدوا آلهة المصريين. وكان أهم ملوكهم شيشنق .

واستمر الحال على هذا المنوال حتى تسنى لبعض رجال النوبة الأقوياء أن يغتصبوا السلطان من أيدى الليبيين وحكموا باسم الأسرة الرابعة والعشرين ومن هؤلاء بعنخى الذى بدأ الأشوريون فى عهده يهددون مصر . وتمكنوا

فى عهد خلفه طهراقه من فتحها . وقد حاول ابنه "تانوت أمون" أن يبسط سلطانه مرة أخرى ولكن خاب أمله .

أخضع الأشوريون مصر ولكن لم يستطيعوا القضاء على المصريين. وكان بسماتيك الأول وهو ابن أحد الأشوريين قد فنى فى القومية المصرية إلى حد أنه تنكر للأشوريين وأحيا الآداب المصرية القديمة وأعلن استقلال البلاد.

استطاع بسماتيك بجيشه الناشئ أن يقضى على نفوذ منافسيه من الأمراء فى معركة دارت بينه وبينهم . وبدأ ينفذ سياسة التوسع . فانتهز الفرصة الملائمة لغزو سوريا بعد أن جهز جيشا من المصريين والإغريق سار فى طليعته وعبر به الصحراء . وما لبث أن استولى على غزة وعسقلان . ثم دخل مدينة "أشدود" ظافرا ودانت له فلسطين ثم عاد إلى مصر . وشرع خلفه نخاو فى استعادة الممتلكات المصرية بآسيا مغتنما ضعف آشور ونينوى فغزا فلسطين وأخضع بلاد يهوذا . واتجه نحو أعالى الفرات ثم رجع إلى مصر بعد أن أعاد سوريا إلى الدولة المصرية وكان قد اعتمد على أسطول قوى .

وهكذا ظهرت مناعة المصريين ضد كل حكم أجنبى — حتى أن قمبيز عند ما تغلب على مصر تأثر مع قومه بالقومية المصرية . فتلقب الفرس بألقاب المصريين وعبدوا الآلهة المصرية ولكن رغم ذلك كله لم يكسبوا صداقة المصريين . فقاموا بعدة ثورات محاولين إخراج الفرس من مصر إلى أن وفقوا فى طردهم أثناء حكم (دارا الثانى) بيد أنهم عادوا إليها ثانية وبقوا فى البلاد إلى أن استولى الاسكندر المقدونى على مصر عام ٣٢٣ق . م وكانت بعد موته من نصيب بطليموس الأول أحد قواده فأسس أسرة البطالمة .

أمير يقود مركبته الحربية

البطالمة

(٣٢٣ — ٣١ ق . م)

كانت مصر فى عصر هؤلاء فى طليعة أمم العالم قوة وثروة — وتمتعت الاسكندرية التى وضع أساسها اسكندر الأكبر بنصيب وافر من الرخاء والغنى . واستطاعت أن تباهى بكوكبة من العلماء كان لهم فى ميادين العلم النظرى والعملى مكتشفات ومخترعات لا يزال بعضها آية فى الإبداع والابتداع . كما كان لأدبائها وفلاسفتها فى نواحى الأدب والفلسفة القدح المعلى والذكر الخالد . وإن مدينة تستطيع أن تنظم فى عقد عظمائها : علماء من طبقة اقليدس وارخميدس وأبولونيوس وهيرو وهبارخس و بطليموس وهيروفيلوس وغيرهم ، ويقرن اسمها فى تاريخ العلم بأصول الهندسة المسطحة وقواعد التشريح ومبادئ الطبيعة المجربة وقياس محيط الأرض ومعرفة ميل دائرة البروج ووضع نظام كونى ظل سائدا حتى خاتمة القرون الوسطى . لمدنية عظيمة خالدة [1] .

وكان لمصر فى أيام البطالمة مركز ممتاز بين أمم العالم . سعت إلى توسيع رقعتها وتدعيم ملكها . ففى عام ٣١٨ ق.م امتلك بطليموس سوريا وأنزل قواته البحرية فى قبرص واستولى عليها . وحوالى عام (٢٨٨ ق . م) كان للأسطول المصرى السيادة فى بحر إيجة . وقد عمل خلفاؤه كل مافى وسعهم لرفع شأن مصر على البلدان المجاورة ونجحت سياستهم أيما نجاح حوالى ثلاثة قرون .

ولقد أثرت البيئة المصرية فى أسرة البطالمة ورجالهم . ففنوا كما سبقهم من الغزاة فى قومية أهل البلاد . وكثر التزاوج بينهم و بين المصريين وأخذوا

---

(١) من محاضرة للأستاذ فؤاد صروف ألقاها فى الجامعة الأميركية بالقاهرة .

يبالغون فى التقرب إلى المصريين . ومع ذلك فإن أهل البلاد لم ينفكوا يحقدون على المغتصبين فثاروا عليهم مرارا إلى أن تداعت الامبراطورية التى أسسها الاسكندر الأكبر . وفى كل هذه المراحل التاريخية لم يتمكن مستعمر من أن يغلب الروح المصرية .

ثم بدأ نفوذ رومة يتسرب إلى مصر . وانتهى الأمر بهزيمة كليوباترة ومارك أنطونى فى معركة أكتيوم البحرية على يد القائد الرومانى أوكتافيوس عام (٣٠ — ٣١ ق.م) وأصبحت مصر جزءا من الامبراطورية الرومانية ومركزا من أغنى المناطق الاقتصادية . ومن أخص المراكز الثقافية فى تلك الامبراطورية التى أخضعت فى دورها بريطانيا وقد تأثرت بالمدنية الرومانية.

ظلت مصر ولاية رومانية ستمائة وسبعين عاما أتيح لها أن تكون فى النصف الثانى منها حصنا منيعا للمسيحية . وانتهت أيام الرومان فى وادى النيل بغزو العرب لمصر عام ٦٣٩ م . فعاد المصريون يثبتون مناعتهم التقليدية ويفنون الغزاة الجدد فى قوميتهم ...

جنود المشاة القدماء.

المصريون القدماء

كانوا أول أمة زراعية عظيمة فى العالم . . . فلاحهم أول من اخترع الفأس والمحراث والشادوف .

حكومتهم أقدم حكومة عنيت بالرى ونظامه ، وكانوا أول من حفروا القنوات وأقاموا الخزانات والسدود .

كانوا أول من مهروا فى الصناعات الدقيقة . وعجائب مصنوعاتهم تدهش أهل العصر الحاضر بجمالها ودقتها .

كانوا أول من اخترعوا الكتابة وأول من صنعوا الورق فى العالم .

كانوا أول من عرفوا العملة الذهبية والنحاسية . كما أنهم استعملوا الأوزان والمكاييل .

عمائرهم وفنونهم قد خلدها الزمن وهى عنوان أقدم حضارة عرفها العالم.

وضعوا أول قواعد الحساب والهندسة والفلك ، ومنها اقتبس علماء الأمم الأخرى . ففى الحساب عرف المصريون الرموز العددية حتى المليون . وعرفوا مساحة المربع والمستطيل والمثلث . ووصلوا إلى مساحة الدائرة .

ونبغ المصريون فى الفلك . وكانوا أول أمة ابتكرت التقويم السنوى وقدروا أيام السنة بـ ٣٦٥ يوما . والتقويم المصرى القديم الذى اخترع فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد هو التقويم الحالى الذى احتفظ به العالم إلى الآن مع تعديل بسيط .

وقسّم المصريون السنة إلى ثلاثة فصول . كل منها أربعة أشهر أولها الفيضان وثانيها البذر (ثالثها ميقيت الحصاد (الصيف) .

والمصريون أول من قاسوا الزمن. فاخترعوا المزاول لمعرفة الوقت نهارا والساعات المائية لمعرفته ليلا .

والمصريون أوائل أطباء العالم . كان لديهم الأطباء الإخصائيون . كل يعالج عضوا من أعضاء الجسم ، وعرفوا فوائد النباتات والأعشاب لمعالجة الأمراض .

وأطباؤهم أول من زاولوا الجراحة ، وقد برعوا فى فن التحنيط إلى حد لم يسبقهم فيه أحد حتى اليوم .

والمصريون أول من جيشوا الجيوش المنظمة . وأول من شيدوا الحصون وكذلك كانوا أول من استعملوا الأساطيل البحرية .

هؤلاء هم المصريون... الذين كانوا أول من أقاموا حكم الامبراطوريات وسنوا القوانين وشرعوا الشرائع .

هؤلاء هم المصريون . . .

مصر الاسلامية

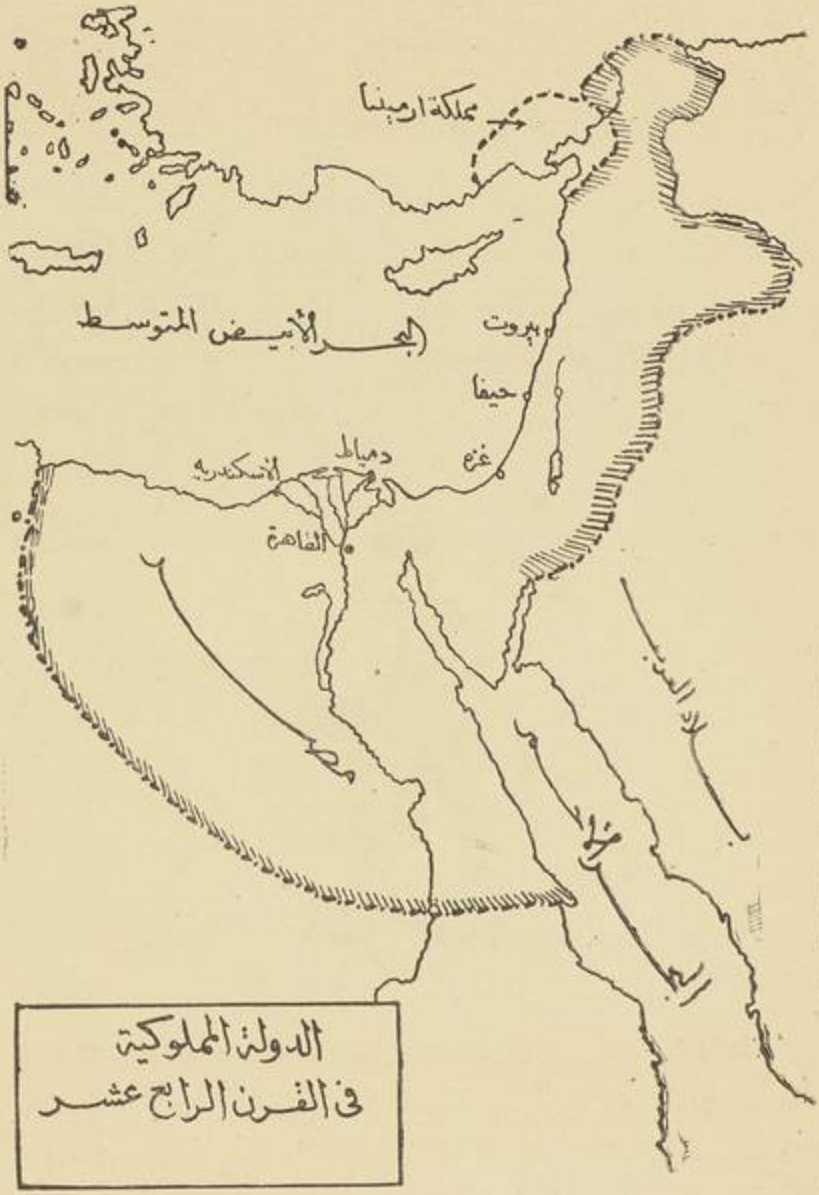

الدولة المملوكية
فى القرن الرابع عشر

الدولة الطولونية

٨٦٨م — ٩٠٥م

أدمجت مصر بعد الفتح العربى فى الإمبراطورية الإسلامية العربية وظلت جزءا منها إلى أن ضعفت الخلافة العباسية وترك الخلفاء حكم البلاد ومعالجة سياستها للوزراء والقواد من الجند الترك فاستأثروا بالسلطة. وعمت الفوضى أجزاء الدولة — وبدأت الحركات الانفصالية فى بعض الولايات ومنها مصر حيث ظهر أحمد بن طولون .

قدم أحمد بن طولون الفسطاط عاصمة الدولة المصرية وعمره لا يتجاوز الثلاثة والثلاثين ربيعا لتسلم زمام القوة العسكرية وسرعان ما ظهر نبوغه فى الشؤون الإدارية والحربية وتجلى نشاطه وعم عدله . أتى إلى مصر مدينا لأحد أصدقائه ومات تاركا خزائن عامرة بالمال وعبيدا وخيلا وجيشا وأسطولا ودولة . وكان أحمد بن طولون طموحا إلى المجد فعمل على

استخلاص ملك مصر لنفسه من أول يوم وطأت فيه قدماه وادى النيل وللمرة الأولى فى تاريخ البلاد منذ الفتح العربى أصبحت مصر فى أيامه دولة قوية مستقلة . فتغلب على مثيرى الفتن فى البلاد وأخضع ثلاث ثورات شبت فى أنحاء مصر ثم سار الى الشام واحتل كل أجزائها ووصل بجيوشه الى الفرات وحارب الروم ووحد تحت سلطته إمبراطورية مترامية الأطراف تمتد من برقه الى حدود الإمبراطورية الرومانية فى آسيا الصغرى ومن نهر الفرات الى شلالات النيل الأولى. واهتم ابن طولون بتحصين الفسطاط فأمر ببناء حصن على الجزيره التى بين الفسطاط والجيزة (جزيرة الروضة) ليكون معقلا لأسرته وذخائره ووزع أعمال البناء بين قواده وكان يتعهدهم بنفسه كل يوم حتى انتهى العمل منه . كما أنه شيد دارا لصناعة الأسلحة والسفن . ولم يدم الحال طويلا لأسرة الطولونيين فقد عادت مصر ثانية إلى سلطان الخليفة العباسى وأصبحت إحدى ولاياته التى يشرف عليها أحد أمرائه. ومع ذلك فلم تنج مصر من هجمات الفاطميين بعد تأسيس دولتهم الجديدة فى المغرب . فأرسلوا جيشا اخترق البلاد المصرية وعسكرت جنودهم أمام شاطىء النيل فى الجيزة حيث حفر جيش الخليفة خنادقه بقيادة " ذكا الرومى " ولكن انتصر المصريون عليهم وطردوا الفواطم عام (٩٢٠ م) .

وتولى الحكم أبو بكر محمد بن طغج الملقب بالأخشيدى ولئن كان لم يترك أثرا عظيما فى مصر إلا أنه أعاد الأمن الى نصابه فى مصر وصد المغيرين من أهل شمال أفريقية وقد بلغت جيوشه فى مصر والشام ٤٠٠,٠٠٠ تشتمل على عدة طوائف وأجناس مختلفة. وفى أيام الأخشيديين غزا الفواطم مصر كما سنرى .

الدولة الفاطمية

(٩٦٩ م — ١١٧١ م)

لما نجح الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى تأسيس دولته بالمغرب عزم على فتح مصر فوضع خطته العسكرية وأعد حملته العظيمة وسيّر عليها قائده جوهر على رأس مائة ألف من جنوده مستهلا السير من مدينة القيروان فى ١٤ ربيع الأول عام ٣٥٨ هـ — (٥ فبراير ٩٦٩م) فسار جوهر حتى وصل بجيوشه إلى طروجة[1] بالقرب من الاسكندرية وأرسل الى أهل مصر فأجابوه بطلب الأمان فأجابهم جوهر الى ذلك وكتب لهم العهد. فلما علم الأخشيديون بذلك توجهوا لقتاله عند الجيزة فوصل جوهر اليها ووقع القتال بين الفريقين حتى سقطت فى ١٧ شعبان عام ٣٥٨ هـ (٦ يوليو ٩٦٩ م) ثم سار جوهر إلى منية الصيادن (ميت النصارى) وعبر مخاضة منية شلقان (شلقان) الواقعة شرقى القناطر الخيرية وكان قد وصل إلى المصريين المدد بقيادة الأمير جعفر بن فلاح والتقى الفاطميون بهم وهزموهم فطلبوا الهدنة .

ودخل جوهر فى اليوم التالى الى مصر فى طبوله وجنوده ونزل بالمناخ وهو موضع القاهرة اليوم واختط المدينة وحفر أساس القصر فى نفس الليلة وكتب الى مولاه المعز يبشره بالفتح ويهنئه وفى ذلك قال ابن هانئ :

يقول بنو العباس هل فتحت مصر
فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
ومذ جاوز الاسكندرية جوهر
تصاحبه البشرى و يقدمه النصر

وبقى جوهر حاكما على مصر الى أن قدم اليها مولاه المعز لدين الله وجعلها مقر امبراطوريته فى الشرق الأدنى .

الجيش فى عهد الفاطميين

كان الجيش فى ذلك العهد ينقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ — الأمراء وينقسمون الى أمراء السلسلة الذهبية وهم أصحاب أرقى الرتب وحملة السيوف وهم حرس الخليفة الراكبين والضباط .

---

(١) قرية كانت موجودة بمركز "أبو المطامير" بمديرية البحيرة .

٢ — ضباط الحرس ويتألفون من الأسياد أو الأغوات وهم الذين كانوا يمنحون مناصب الدولة الهامة . والحرس الصغير وكان يتكون من ٥٠٠ شاب تقريبا ثم جنود الخليفة وعددهم نحو ١٥٠٠٠

٣ — اللواءات ويحمل كل منها اسما لأحد الخلفاء أو الوزراء أو يطلق عليها اسم القبيلة التى تنتمى اليها كالمحافظية والجيوشية والروم والصقالية ، والسودانية وكان عدد هـذه اللواءات كثيرا جدا يختلف من وقت لاخر وكان مرتب الجندى يتراوح بين دينارين وعشرين دينارا فى الشهر .

وكانت هيئة الوزراء تنقسم الى قسمين . رجال السيف ورجال القلم ، فرجال السيف هم قواد الجيش ورجال ديوان الجنود وكان هؤلاء يشغلون أهم مناصب الدولة .

وكانت إدارة الجيش تتألف من الأقسام الآتية :

(الأول) ديوان الجيش ولا يكون كبيره إلا مسلما ، وهو الذى يعرض الجند وخيولهم ، ولم تكن فى سلطته تغيير أحدهم ولا شىء من مخصصاتهم إلا بأمر من السلطان ، وكان يشرف على نقباء الأمراء الذين يعرفونه أحوال الجنود .

(الثانى) ديوان الرتب وكان يشتمل على اسم كل مرتزق فى الدولة .

(الثالث) ديوان الأقطاع ، وكان مختصا بما هو مقطع للجنود (نصيبهم من الأرض)

وكان بمصر فى عهد الفواطم دار يقال لها " خزانة البنود " تودع فيها الأعلام والدرق وكان ينفق عليها حوالى ٨٠,٠٠٠ دينار سنويا ، وكانت تحتوى على كل ماصنع من الأعلام والأسلحة والسروج واللجم — وفيها المذهب والمفضض وقد احترقت الدار بما فيها ولم ينج منها شىء وكان من جملة ما احترق لواء الحمد وقد بلغت قيمة الخسائر حوالى ثمانية ملايين دينار .

وفى خاتمة أيام الفاطميين كانت القاهرة قد بلغت شأنا كبيرا من الرقى والتقدم تكتنفها الطرقات والأسواق وتتوسطها البساتين الغناء وتشتمل على الحمامات والوكالات والمدارس ، وتاريخ هـذه العمائر ووصفها قد أفاضت فيه صفحات الخطط المقريزية فى فصول تضئ بعظمة القاهرة من أعوامها الأولى إلى القرون الوسطى وقد وصفها أيضا الرحالة العرب والأوربيون .

ونذكر من أهم منشآتهم فى القاهرة[1] الجامع الأزهر ، والجامع الحاكمى ، والأقمر ، وجامع الصالح طلائع ، وقد اندثرت معظم القصور ودور العلم التى كانت تزين القاهرة ، وما زالت مخلفاتهم الخالدة فى المتاحف يشهد بها علماء الآثار والفنون .

وقد امتد سلطان الفواطم من نهر العاصى بالشام إلى حدود مراكش غربا وشمال السودان وطغى نفوذهم الروحى على بلاد فارس ، وأخيراً قضى على سيادتهم البطل صلاح الدين الأيوبى كما سنقرأ فى الفصل الثانى .

---

(١) القاهرة من المعز إلى الفاروق للبكباشى عبد الرحمن زكى .

الدولة الأيوبية

(٥٦٧ هـ — ٦٤٨ هـ // ١١٧١ م — ١٢٥٠ م)

وصل أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى إلى مصر فى أوائل يناير عام ١١٦٨ م لنجدة مصر ضد جيوش أملريك ملك الفرنج فى سوريا لحاول " شاور " وزير الخليفة الفاطمى العاضد أن يستميل " شيركوه "

بالملق والمداهنة فلم يفلح وقبض عليه صلاح الدين وأمر الخليفة بقتله لما علم باتصاله بأعداء مصر وتخلصت البلاد من داهية لعب دورا كبيرا فى السياسة المصرية فى القرن الثانى عشر .

واختار الخليفة العاضد بعد شاور القائد أسد الدين شيركوه ليكون وزيره الأول ولقبه بالملك المنصور غير أنه مات بعد شهرين وخمسة أيام فاستوزر من بعده البطل صلاح الدين وجعله أميرا لجيوشه ولقبه بالملك الناصر .

وانتهز صلاح الدين فرصة وفاة العاضد فقضى على الدولة الفاطمية فى مصر وأعاد سلطان العباسيين مرة ثانية إلى مصر ثم أنشأ أسرة الأيوبيين وجعل على وزارته " بهاء الدين قرقوش " ، و بانقراض الدولة الفاطمية أزال صلاح الدين جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعرب والأرمن وجعلهم من الأكراد والأتراك فبلغت عدتهم ١٢,٠٠٠ فارس .

قضى البطل صلاح الدين معظم حياته خارج مصر محاربا الصليبيين لرفع شأو الاسلام والمسلمين وفى خلال الأربعة والعشرين عاما ، وهى فترة استقلاله بالحكم ، لم يقض منها سوى ثمانية أعوام فى القاهرة . كان كثير الانتقال بين الشام وأرض الجزيرة وفلسطين . ولقد قضى على الصليبيين بانتصاره الخالد عليهم فى معركة حطين (١١٨٧ م) . وأعاد بيت المقدس لسلطان المسلمين وسمح للمسيحيين أن يحجوا اليه .

معركة الحرمين

ولا يتسع المجال للكلام عن انتصارات صلاح الدين على الصليبيين فى بلاد الشام ومصر وانتهاء نضاله معهم فى معارك حطين وصور وعكا والرملة ، لكننا نذكر موقفا اشتركت فيه بعض قوات مصرية برية وبحرية ، ففى عام ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) قصد الفرنج بلاد الحجاز بعد أن بنى الأمير أرناط (ريجنال دى شاتيون) صاحب قلعة "الكرك" بشرق الأردن سفنا وحملها على الابل الى بحر القلزم وأركب فيها الرجال وأوقف منها مركبين بالقرب من قلعة القلزم (السويس) لمنع أهلها من الاستقاء . وسارت البقية نحو ميناء عيذاب أحد موانئ مصر فقتلوا وأحرقوا وأسروا فى بحر القلزم نحو ستة عشرة سفينة وأخذوا بعيذاب مركبا كان يأتى بالحجاج من جدة ، وأسروا قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع واحتفظوا بسفينتين

محملتين بالبضائع . كما استولوا على أطعمة كثيرة كانت معدة لأهل الحرمين ، وأحدثوا حوادث لم يسمع فى بلادالاسلام بمثلها وكانوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة . فأوفد الملك العادل بأمر من السلطان صلاح الدين القائد حسام الدين لؤلؤ إلى القلزم (السويس) حيث أعد أسطولا صنعت سفنه فى مصر والاسكندرية . وسار إلى (أيلة) على رأس العقبة وظفر بسفن الأفرنج فحرقها وأسر من فيها . وسار إلى عيذاب وتبع سفن الفرنج فاستولى عليها ، وأطلق من فيها من التجار الأسرى ورد اليهم ما أخذ منهم وصعد البر مع قواته حتى أدرك من فر من جنود الأفرنج وأسرهم وساق منهم اثنين إلى مُنى وذبحهما ثم عاد إلى القاهرة بالأسرى فضربت أعناقهم كلهم فى جهات متعددة بين القاهرة والفسطاط . ثم انتقم صلاح الدين من الأمير أرناط وقتله بيده .

وقد امتد سلطان مصر فى زمن الدولة الأيوبية ورفرفت رايتها على جزء عظيم من الممالك الإسلامية. فدخل تحت حكمها الشام وشمالى العراق و بلاد الكرد وعند وفاة صلاح الدين (٤ مارس ١١٩٣ م) كانت مصر زعيمة دولة إسلامية امتدت من دجله إلى برقة و إلى النوبة جنوبا . وفى عهده شيّدت قلعة الجبل على المقطم فى البقعة التى كان يتدرب فيها الجند أثناء حكم " أحمد ابن طولون " . وأعيد بناء أسوار القاهرة .

عمل خلفاء صلاح الدين بعده على الاحتفاظ بمكانة مصر وجمع كلمة المسلمين . فوقفوا فى وجه الصليبيين وأضعفوا شوكتهم ولم يفتروا عن توطيد دعائم ملكهم — فكان الملك العادل من أكبر الناس حرصا على وحدة المسلمين ، ولما خلفه ابنه الكامل سار على هدى أبيه وجده فحفظ وحدة الدولة وزاد فى تحصين القاهرة ، فأتم بناء قلعة صلاح الدين (الجبل) وفى أيامه غزا الصليبيون دمياط بقيادة الملك (جان دى بريين) عام ١٢١٨ م

معركة دمياط

بدا للصليبيين أن يحولوا رحى الحرب من سوريا إلى مصر قلب الدولة الاسلامية فقصدوا دمياط وملكوها بعد معارك شديدة . وكان العادل فى الشام فمات أثناء عودته كمدا على ضياع هذا الثغر .

ثم تولى ابنه الكامل عام ١٢١٨م فعمل على طرد الصليبيين من دمياط ولما وصلت اليهم أمداد جديدة عرض عليهم الصلح على أن يرد اليهم بيت المقدس نظير جلائهم عن دمياط فرفضوا هذا البدل وشرعوا فى الزحف على القاهرة .

وانتهز المصريون فرصة ارتفاع النيل (الفيضان) فأطلقوا الماء على معسكراتهم بالقرب من المنصورة . ثم انقضوا عليهم من كل جانب وهزموهم شر هزيمة . ثم أمر الملك الكامل باطلاق سراح الأسرى بعد أن عاهدوه على أن يخلوا دمياط ويجلوا عن مصر .

وفى سنة ١٢٤٤م انتزع الملك الصالح نجم الدين بيت المقدس وشيد قلعة الروضة بجزيرتها حيث حشد فيها الجند والأسلحة

معركة المنصورة

وفى عام ١٢٤٨ م أعد الفرنج حملة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا للاستيلاء على مصر وأرسل هذا خطابا إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب يطلب منه تسليم البلاد فكتب القاضى بهاء الدين زهير الجواب الحاسم معلنا مقاومة المصريين إلى النهاية .

وقدمت سفن الصليبيين أمام دمياط بكثرة هائلة فاضطرت حامية المدينة إلى التقهقر و إخلائها من السكان بسرعة فاستولى عليها الفرنج

---

(١) كتاب معارك حاسمة فى تاريخ مصر — دمياط والمنصورة — للبكباشى عبد الرحمن زكى

. سهولة وأخذوا فى تحصين أسوارها ومد قلعتها بالآلات الحربية والجند ، وفى ذلك الوقت أسرعت القوات المصرية وعلى رأسها السلطان و بقيادة الأمير فخر الدين إلى المنصورة لمقاومة تقدم الأعداء وردهم على أعقابهم ، ولكن بعد أيام قلائل مات السلطان فكتمت زوجته شجرة الدر خبر وفاته إلى أن قدم ابنه ووريثه فأعلنت وفاته رسميا وتولى العرش توران شاه .

ولما علم الفرنج بموت السلطان خرجوا من دمياط متقدمين إلى فارسكور فوصلوها . وعسكرت قواتهم أمام المنصورة وصار بينهم و بين المسلمين بحر أشموم .

كان أول ما اهتم له الفاتحون هو تأمين أنفسهم فى مركزهم الجديد ، وتحصين معسكرهم بالأسوار والخنادق والمتاريس . فلما تم لهم ذلك نصبوا المنجنيقات وقاذفات الأحجار ، وراحوا يلقون الصخور على رءوس العدو عبر القناة لعلهم يزحزحونهم عن مواقعهم . بيد أن المصريين أجابوا ضربة بضربة وحجرا بحجر . وحمى وطيس الراشق بينهما ليل نهار حتى فدحت الخسارة من الجانبين فى الأرواح . ومن ثم أدرك الصليبيون أن العدو يضاهيهم بل يفوقهم فى هذا النوع من فن الحرب الشىء الذى قر معه قرارهم على ملاقاتهم وجها لوجه والاشتباك معهم فى معركة يجيد الفرنسيون فيها ضروب القتال. وعلى هذا ابتدأوا فى تشييد جسر يعبرون عليه القناة ، ولكن مثل هذه المهمة كانت عسيرة وخطيرة تحت وابل القذائف الذى يمطرهم به المصريون الذين كانوا يملكون ست عشرة آلة من القاذفات . فلم يسع الملك لكى يحمى جنده الذين يعملون فى تشييد الجسر إلا أن أمر بصنع ثمانى عشرة من مثل هذه الآلات ووضعها على الضفة المقابلة للعدو . وأمر كذلك بإقامة جسر متنقل مرتفع يعلوه برج من الخشب يقف عليه رماة النبال المهرة وحملة القسى . فما أن انتهوا من تشييد هذا الجسر ذى البرجين حتى ازدادت حميتهم فى إنهاء الجسر الكبير . ولكن سرعان ما أيقنوا أن المصريين أكثر منهم براعة فى فن الهندسة ، فبمجرد أن تم إقامة الجسر إذا بهم يرونه — من جانب العدو — يتداعى و ينهار . فإن المصريين حين

رأوا هذا الجسر عبر القناة ، بادروا بحفر خنادق عميقة ملاصقة لطرفها الذى فى ناحيتهم . ومن ثم كانت مياه النيل تأتى متدفقة فلا تجد لها منفذا غير هذه الحفائر فتندفع فيها وتملؤها ، وكانت النتيجة أن المياه أناخت الضفة التى يرتكز إليها الجسر . فانخفضت به وحطمته . وهكذا انهارت فى يوم أو اثنين جهود عدة أسابيع .

وعلى أثر ذلك ظهر فى ميدان القتال سلاح أشد وأفتك من كل آلات الحرب حينذاك . فقد فوجئ الفرنسيون بشعلات رهيبة من اللهب تنصب على رءوسهم كأنما تدفقت من علياء السماء . أو تدرى ما هى ؟ تلك هى النار الأغريقية . مزيج الرعب والموت . السر الرهيب الذى كثيرا ما أنقذ الامبراطورية البيزنطية من الدمار . وظل مغلقا كالطلسم أمام الشعوب الأخرى أربعة قرون حتى وقع المسلمون قبيل حملة لويس التاسع على مكنونه فعرفوه .

وإزاء هذا كله ، صمم الملك على بناء مجموعة أخرى من الطوابى بدل التى احترقت ، بيد أنه لم يجد خشبا فى البلاد المجاورة ، فاضطر الى جلبه من السفن الراسية فى دمياط . ومن ثم شيّد عددا آخر من البروج تحت وابل من قذائف الأحجار ... ولكن لم يكن حظها أوفر من سابقاتها ، إذ سلط المسلمون نارهم الجهنمية عليها فاشتعل فيها اللهيب وكان عليها أن تحترق للمرة الثانية .

وحينئذ لم يبق للصليبيين حيلة ما ، فيئسوا وفتر نشاطهم ، بعد أن ذهبت كل محاولاتهم سدى فى عبور القناة والاشتباك مع العدو . وأخفقوا أيما إخفاق فاستدعى الملك هيئة أركان حربه وراحوا يقلبون الأمر على وجوهه ويتشاورون فيما ينبغى اتخاذه فى هذا السبيل المظلم .

ولاريب أن إدارة المخابرات فى الجيش الفرنسى المهاجم كانت من الغفلة بدرجة تدعو الى الرثاء . فالظاهر أنهم لم يكونوا على معرفة شىء بالمرة عن المنطقة التى كانوا يحاربون فيها — ولعله من المقطوع به ان العدو كان يفوقهم عدة

وعددا حتى أن كل فرقة فرنسية تخرج للكشف كانوا يقضون عليها فلا تعود أو لعلهم لم يفكروا مطلقا فى إرسال الكشافين ليتعرفوا معالم مناطق القتال ويكونوا على بينة عند اشتباكهم فيها . فالحق أن معلوماتهم عن الحرب — باعتبارها علما وفنا — كانت قليلة جدا .

ولما اجتمع الملك بقواده ، صرح "السير هومبرت دى بيجو" بأن بدويا عرض عليه — فى مقابل خمسمائة ذهبيه أن يريهم مخاضة مأمونة فى البحر الصغير ماؤها ضحل وعبورها سهل للجازبين ولكن هذا البدوى أصر على أن يتناول المال مقدما . فقبلوا على الفور هذا العرض .

وفى يوم الثلاثاء الخامس من شهر فبراير سنة ١٢٥٠ عبر الملك مع أشقائه الثلاثة وقوة كبيرة من الفرسان هذه المخاضة ، وفاجئوا المصريين فى معسكرهم وقد كان القائد فخر الدين فى الحمام فخرج فورا وامتطى صهوة جواده دون أن ينتظر حتى يلبس درعه ، وانطلق يلم شعث المسلمين والتحم بالعدو مقتحما صفوفهم فى شجاعة ، ولكنه سقط مثخنا بالجراح ومات تحت سنابك الخيل . ونزل الفرنج على "جديلة" (١) وكانوا ألفا واربعمائه فارس يتولى قيادتهم أخو الملك الكونت "دارتوا" .

اقتحام المنصورة :

واقتحمت قوة من الصليبيين أحد أبواب المنصورة ، وانطلقت وراء المسلمين الذين فروا هائمين فى أنحاء المدينة وحواليها لا يلوون على شىء . ودخلوها دخول الفائز المنتصر ، غير أنه فى لحظة خاطفة طار ذلك النصر من أيديهم إذ باغتهم جيش المماليك البحرية وقد كان فى انتظارهم خارج المدينة فردّهم على أعقابهم . وطارد فلولهم فى كل مكان ، وتعقبهم فى الأزقة

---

(١) تل مطل على الشاطىء الجنوبى لبحر أشموم . وكان المسلمون قد نصبوا مجانيقهم وأبراجهم عليه قبالة معسكر الفرنج . والبرجين المتحركين على الشاطىء الآخر .

والشوارع . فلما لاذوا بالبيوت يبتغون الاحتماء بها انهال عليهم بالضرب سكانها وتساقطت فوق رءوسهم القذائف من السطوح والنوافذ . ولولا وصول قوات المشاة الفرنسية لهلكوا عن آخرهم .

ولا شك أنه لولا تهور قائد هذه القوة الكونت " دارتوا " شقيق الملك لما حدثت تلك النكبة الشنيعة والهزيمة المنكرة — فقد غلبت عليه الحماسة وحب السبق فاندفع على أثر عبوره الخاضة بفرقته نحو كوكبة من خيالة المسلمين فطاردها وتعقبها الى المعسكر . ثم تقدم الكونت دارتوا إلى معسكر المسلمين واستولى على الجهة التى كانت بها الأسلحة الحربية (المنجنيقات) . ويظهر أنه كان يعنى الانفراد بظفر ذلك اليوم من دون بقية الجيوش الفرنجية ، فلم يقف منتظرا وصولهم الى حيث وصل بل تقدم مسرعا نحو المنصورة ودخلها منصورا ثم اندحر .

وقتل فى هذه المعركة ألف وأربعمائه فارس ، وكثير من نبلاء فرنسا بعد أن أبدى الفريقان فى القتال بسالة منقطعة النظير . وكان من تولى قيادة المسلمين فى ذلك الهجوم البارع المروع هو بيبرس — قائد المماليك البحرية الذى سرعان ما طبقت شهرته الآفاق ، والذى غدا بعد عشر سنوات سلطانا على مصر . وكان حكمه — لمدة سبعة عشر عاما — حكما مجيدا .

أما الصليبيون فقد أظهر ملكهم وأشقاؤه بسالة رائعة وتضحية نبيلة ، إذ كافحوا مع جنودهم جنبا الى جنب ، وعرضوا حياتهم لأشد الأخطار حتى أن السيد " جوانفيل " يؤكد أنه لولا شجاعة الملك فى ذلك الوقت لهلك الجيش برمته . وهو يصور القتال فى هذه المعركة فيقول :

" فيها أظهر العدوان مهارة فائقة وصلابة ودربة ، وقام أبطالهم بأعظم الأعمال وأروعها إقداما وجرأة ، إذ أن العراك فيها لم يكن بقوس ولا برمح ولا بقذيفة مدفع ، إنما كان صورة مروعة لملحمة هائلة اشتبكت فيها الأجساد البشرية ، وهى تتبادل الطعنات بالسواطير والقضبان والسيوف

والرماح مختلطة ببعضها فليس ثمة الا ضربات ذات اليمين وذات الشمال وهنا وهناك ، وعلى الرءوس وفى الصدور وخلف الظهور . صيحات تزأر وأنات تزفر وكأن المنايا على شفاه الصرعى تدور — وحينذاك طارت ضربة طائشة فصادفت صدر الكونت دارتوا فخرلتوه صريعا بلباسه الفاخر فأخذ القائد درعه ورداءه ورفعهما أمام المسلمين. ولكى يؤجج نار الحماس فى صدورهم قال لهم: "هذا هو درع الملك ورداؤه . فإن عدوكم قد مات" .

حركة هجوم مضاد للجيش المصرى :

وفى اليوم التالى لهذه المعركة — أمر فارس الدين أقطاى — وهو القائد الذى أختير خلفا لفخر الدين بانعقاد مجلس الحرب . وقرر القيام فى الحال بهجوم كبير لتحطيم الجيش الصليبى . ولكن الصليبيين عرفوا هذا الهجوم من أحد جواسيسهم ، فبادر الملك باعداد جيشه لهذا الهجوم ، رتبه فى سبع فرق كبيرة انتظمت على طول الضفة فى مواجهة المعسكر المصرى ، إلا أن موقف الصليبيين هناك كان غاية فى الدقة والخطورة ، فقد كانت تحوطهم من خلفهم وعلى جانبيهم أنهار وترع عميقة سريعة الجريان . وكان أمامهم العدو فلم يكن لهم من سبيل الى الاتصال بمعسكرهم فى الضفة الشمالية للبحر الصغير إلا قنطرة واحدة خشبية . ثم أن جيشهم ولو أن جناحه الأيسر كانت تحميه بعض الشئ فرقة واحدة من حملة القسى بقيادة السير هنرى دى كون المرابطة على الضفة الشمالية ، إلا أن الجناح لأيمن كان مكشوفا أمام القوات المصرية التى تهدده بقوتها الهائلة وتفوقه فى العدة والعدد .

خطة المعركة التى دبرها القائد أقطاى :

ويأتى المؤرخ "جوانفيل" على وصف خطة الهجوم التى أحكمها أقطاى والتى تدل على مهارته الفائقة فى القتال فيقول :

"فى صبيحة الأربعاء رابع المحرم (٦٤٨ هـ — ١٢٥٠ م) وقد أرسلت الشمس أول خيوطها . رأينا الأرض كأنما تتحرك أمام ناظريها .

وقد أقبل أربعة آلاف فارس يحملون فى منظر رائع سلاحهم . ويتهادون على ظهور جيادهم . ووقفوا تجاهنا فى أبدع نظام . وبعد قليل أقبل من خلفهم جيش جرار من المشاة . حجب من كثرته أمامنا وجه الأفق فأحاطوا بجيشنا كله . وعلى الأثر ظهر من وراء هؤلاء جيوش أخرى لا يبلغ البصر مداها . فاصطفت فى المؤخرة على نسق عجيب وتبدى القائد المصرى على رأس جيوشه ينظمها ويرتب صفوفها وأماكنها . فلما انتهى من ذلك تقدم وحده على ظهر جواده . وسرح البصر فى قواتنا . فكان يأمر بزيادة جنده حيث يرى جندنا أوفر . وبانقاصها فى الأماكن التى يرانا فيها أقل قوة . وظل هذا القائد منهمكا فى تلك العمليات حتى الظهر . وإذا ما انتصف النهار وقف وسط جنوده فى مهابة وجلال . وباشارة من يده دوى فى الفضاء فجأة صوت الطبول وضرب النقرزان وكأنما زلزلت الأرض وانتفضت السماء بقصف الرعود . فامتلأت بالدهشة والروعة قلوب أولئك الفرنسيين الذين مادق سمعهم من قبل هذا الصوت الرهيب . ثم بدأت الخيل والأرجل تسير معا فى خطوة واحدة وفى كل جانب . وبدأ الهجوم .

وتنقلت فرق العدو على رقعة الميدان بنظام عجيب ، كأنما لاعب ماهر ينقلها على رقعة شطرنج . واندفع مشاتهم نحو رجالنا فأصلوهم بالنار الإغريقية ثم انقض فرسانهم فى سرعة عظيمة وحماس هائل على فرقة الكرنت دانجو فأنزلوا بها هزيمة نكراء . وكان الكونت منتصبا على قدميه ومعرضا نفسه للموت المحقق لولا أن أنقذه أخوه الملك ورد الأعداء عنه . بيد أن الجيش أصيب بضربة قاسية . فبين السبع فرق التى يتألف منها هلكت اثنتان إحداهما بقيادة " فريبار وليم دوسوتاك " قائد فرسان المعبدين وكان قد دخل المعركة بمن بقوا على قيد الحياة من رجاله بعد موقعة يوم الثلاثاء المروعة . ولما كان شاعرا بضعفها فقد أقام أمام معسكره حاجزا من المتاريس يتكون من بعض ما غنموه من العدو ومما جمعوه من كل الخشب . ولكن هذا كله كان عبثا لأطائل تحته — فقد أحرقه المسلمون بنارهم . وأطبقوا على رجال الفرقة فى شدة وعنف . وسرعان

ما قضوا عليهم . وكان قائدها "دوسوناك" قد فقد إحدى عينيه فى معركة يوم الثلاثاء الآنفة الذكر . ثم فقد فى هذه المعركة عينه الأخرى وفى النهاية سقط قتيلا وهو يدافع لآخر رمق . دفاع الأبطال .

أما الفرقة الأخرى التى فتك بها العدو فكانت بقيادة الكونت دى بواتييه وهى تتألف من المشاة . عدا الكونت فقد كان راكبا جواده . فأبيدت هذه الفرقة عن آخرها وأسر قائدها ، غير أنه تمكن من الفرار وارتد إلى المعسكر .

والفرقة التالية لفرقة الكونت دى بواتييه كان على رأسها السير جوسيران دى برانسون وهى أضعف الفرق جميعا وتتكون من المشاة . فنفذ العدو بين صفوفها فى كل جانب . وأوشك أن يفنيها كلية . لولا أن أدركها الكونت "دى كون" بجماعة كبيرة من جنوده حملة القسى من الضفة الأخرى للبحر الصغير فأنقذوا بعض رجالها وإن كان " دى برانسون " سقط قتيلا وخر بجواره صفوة فرسانه ومعظم البواسل من جنده .

فترة جمود :

توقف المصريون عن القتال ، وتركوا الفرنسيين فى أخطر المواقف وأحرجها ، فان محاولتهم بعد الهجوم على المصريين كانت مستحيلة ، فى حين أن بقاءهم فى أماكنهم كان معناه الهلاك المؤكد ، ومع ذلك فالغريب أنهم لم يتحركوا ، وأضاعوا الوقت كما أضاعوه مرارا من قبل ، فكان كل يوم يمر يزيد مركزهم سوءا ، إذ تفشى فى معسكرهم مرض مريع ، ولم يجدوا وسيلة للتخلص من جثث موتاهم إلا أن يلقوها فى النيل والقناة — غير أنه بعد أيام قلائل طفقت هـذه الجثث تطفو على وجه المياه — وفى ذلك يقدم لنا "جوانفيل" صورة أليمة لذلك المنظر البشع ، حيث تراكمت على وجه المـاء طبقة من الجثث المشوهة لهؤلاء التعساء .

وبسرعة مدهشة تفشى الداء ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ظهر أيضا مرض الاسكربوط نتيجة لنفاد المؤونة وقلة التغذية ، فأصيب به معظم رجال الجيش ، وحتى الخيل لم تنج منه وماتت ، ومع كل هذا فانهم إلى ذلك الوقت — لم يدر بخاطرهم فكرة الانسحاب .

وفى اليوم التاسع عشر بعد المعركة — أى فى ٢٤ فبراير — وصل طوران شاه إلى المنصورة — وبمجرد دخوله المدينة نودى به سلطانا على مصر ووضعت شجرة الدر سلطتها بين يديه ، وعندئذ أعلنت وفاة السلطان نجم الدين

تسليم الصليبيين :

كانت المؤن والعتاد ترد إلى الفرنج من دمياط على ظهر النيل ، فصنع المسلمون عدة سفن ونقلوها مفككة على الجمال إلى بحر المحلة شمالى البحر الصغير ، وطرحوها فيه وزودوها بالمقاتلة ، فلما جاءت سفن الفرنج لبحر المحلة ، خرجت عليها سفن المصريين من مكامنها — كما قدم للمعاونة أسطول آخر من المنصورة ، فأخذت مراكب الفرنج أخذا وبيلا ، وكانت اثنتين وخمسين مركبا — ونقل منها وأسر نحوا من ألف إفرنجى ، وغنم سائر ما بها من الأزواد والأقوات وحملت الأسرى إلى المعسكر المصرى .

واستمرت هذه الإغارات النهرية يوما إثر يوم ، حتى انقطع دابر سفن الفرنج ، ولم تمد قوات الصليبيين على اتصال بقواتها فى دمياط ، وأخيرا أحرق الفرنج ما عندهم من الخشب ، وأتلفوا سفنهم استعدادا للفرار إلى دمياط .

وخطة قطع مواصلات الفرنجة كانت أول ما اهتدى إليه السلطان الجديد ليشل حركة تموينهم ويقضى عليهم اقتصاديا ، وكانت النتيجة أن ضنكا قاسيا ، بل مجاعة مروعة أصابت المعسكر الفرنسى... ويالها من بساطة مؤلمة وسذاجة مؤثرة فى النفس ، تلك التى يطالعنا بها " جوانفيل " فى مذكراته متحدثا عن حالهم ! .

وعلى الرغم من أن الجيش الصليبي كان مهددا إذ ذاك بالفناء التام ، فقد حدثت فترة أخرى من التأخير ... الذى يبعث على العجب ، وأخيرا قرر الملك الانسحاب فأعطيت الأوامر بأن على جميع الكتائب الموجودة فى شمالى البحر الصغير أن تتقهقر أولا — بيد أنه حدث خلال تنفيذ هذا الأمر أن قام العدو بهجوم عنيف ، فاكتنفت مهمة الانسحاب صعوبة طارئة . وقد بذل الفرنسيون كل ما فى طاقتهم من جهد لنقل القوات ، فى الوقت الذى كانت فيه مؤخرة الجيش معرضة لأشد الضربات ، حتى لقد كادت تتخلف عن باقى الحملة لو لم ينقذها الكونت "دانجو" ونخبة قوية من فرسانه .

وعقب أن تم الانسحاب على هذه الصورة ، عاد الملك فطلب فتح باب المفاوضات مرة أخرى مع السلطان . غير أن المصريين كانوا أعلم هذه المرة بما يلابس الجيش الفرنسى من الشدائد والعسر ، إذ نقص عدده وتحطمت عدته كما نفدت ذخيرته ومؤونته . وصار فى حال من البؤس لا ينتظر له من بعدها قومة ولا حياة . فطلبوا من ذلك الجيش العاجز ضمانة للانسحاب من دمياط ، وكان المفروض أنهم سيحجزون أحد أشقاء الملك كرهينة لديهم ، ولكنهم رفضوا أية رهينة غير الملك نفسه . وقد قالوا ذلك لسفيره السير "جيوفرى دوسيريجين" فأجابهم فى شهامة أنهم لن يستولوا على شخص الملك مهما فعلوا ، وأن الفرنسيين يفضلون ألف مرة أن تقطع رقابهم جميعا عن أن يقال إنهم أعطوا ملكهم رهينة عنهم .

وظلت الحال معلقة ، دون أى نتيجة ، فترة من الوقت ، فالمصريون يصرون على أسر الملك ولا يرضون عنه بديلا والفرنسيون يأبون أن يسلموا ملكهم ، حتى اشتدت عليهم وطأة الجوع ، وطوت بطونهم قسوته ، وتكاثر فتك الحمى ، وارتفعت بينهم الضحايا . فثارت نفس الملك وصاح فى حاشيته أنه لن يستطيع بعد ذلك أن يبقى على ظهر سفينته آمنا بينما رعاياه يكابدون ألم الضنك . وصمم على أن ينزل إليهم ليعيش بينهم ويموت مثلهم .

إنه لموقف عصيب . . ، فها هو ذا الموت قد نفد ، والجوع ينهش بأنيابه الرهيبة بطون أبناء فرنسا ، والأرض مفروشة بأجساد مرضاهم والفضاء مرتجف بأنات الألم وحشرجة الموت . وقد ماتت الخيول وقتل صغرة أبطالهم وزهرة شبانهم .

لقد أخفقوا فى مفاوضات التسليم ، ولم يبق أمامهم ما يفعلونه إلا أن يعودوا ، ويالها من عودة قاتلة محفوفة بالخطر !

وفى انسحاب الفرنسيين عادوا فارتكبوا تلك الغلطة التى وقعوا فيها قبلا ، إذ ولوا فى عجلة وذعر فنسوا أن يتلفوا القنطرة التى عبروا بها البحر الصغير ومن ثم قدموا بأنفسهم للعدو ممرا يجتازه فى أعقابهم ، ويضيق عليهم الخناق آخر الأمر .

وكان الخط الوحيد الذى يمكن الانسحاب فى اتجاهه هو الجسر الطينى المرتفع على حافة النيل . فإن طريق الحقول والقرى كان يقطعه على طول المسافة كثير من القنوات العميقة ومجارى المياه المتخلفة عن الفيضان فضلا عن أنه كان مخفورا فى أكثر نواحيه بقوات المصريين .

وقد بدأ الانسحاب فى مساء ٥ أبريل سنة ١٢٥٠ حيث تحرك الجيش الفرنسى متجها صوب الشمال تاركا خلفه أكداسا مكدسة من الخيام والذخائر والمهمات وكل حاجيات الجيوش..... تركوها غنيمة سمينة باردة للمصريين .

وكان الجيش المصرى بينذاك يحوس طول الليل أنحاء الميدان ، ويتصيد من يقع فى يديه من المتغيبين أو الهاربين ، بينما كانت مؤخرة الجيش الصليبى بقيادة السير " والتر دوشاتيلون " تبذل جهد الجبابرة فى تغطية الانسحاب .

تبع المصريون الجيش المنسحب وهو فى حالة يرثى لها . واستمر النضال وطالت المطاردة حتى وصلوا إلى فارس كور — وهى فى ثلثى المسافة إلى دمياط — وهنالك توقفوا ... ... إذ أصاب المصريين التعب من جراء القتل والمطاردة .

ويقرر المؤرخون العرب أن فى قتال الانسحاب قضى من الصليبيين ثلاثون ألفا وقد يكون فى هذا التقدير مبالغة ، ولكن الشىء المفروغ منه هو أن من بقى من الجيش الفرنسى عقب ذلك كان عليه الاختيار بين اعتناق الاسلام أو الموت أو العبودية .

وفى صبيحة يوم الأربعاء الرابع من المحرم (٦٤٨ هـ — ١٢٥٠ م) أحاط المسلمون بالقوات الفرنسية وأجروا فيهم سيوفهم واستولوا عليهم قتلى أو أسرى ، أما ماغنموه من الخيل والبغال والأموال فهو مالا يحصى . ولم يستشهد من المسلمين إلا عدد قليل ويعزى فضل كبير فى تحقيق النصر إلى بلاء المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقدارى بلاء حسنا .

الملك الأسير

ويروى "جوانفيل" قصة اعتقال الملك كما سمعها من فم مولاه فيقول :

تخلف الملك عن فرقته ، وانضم إلى فرقة السير "والتردوشاتيلون" الذى يقود مؤخرة الجيش وكان ممتطيا صهوة جواد صغير . ولم يكن معه من رجاله سوى ذلك الفارس الأمين سير "جيوفرى سيريجين" الذى دافع عنه حتى بلغ الأعياء بالملك مبلغا قاتلا ، فتوقف الملك ومن معه بالقرب من بلدة تدعى "منية أبو عبدالله" على مسيرة بضعة فراسخ فى الشمال من المنصورة .

وهنالك أحاط بهم العدو ، وأصبحت المقاومة إذ ذاك عبثا ، فسلموا انفسهم بعد أن أمنهم العدو على حياتهم ، وكان عددهم يربو على الخمسمائة ،

ومعظمهم من الفرسان والنبلاء . وفى الحال أخذ المصريون الملك على إحدى السفن ونقلوه إلى المنصورة حيث اعتقل فى دار ابراهيم بن لقمان كاتم أسرار السلطان ، وهنالك ألقوه مقيدا بالسلاسل ، وأبقوه فى حراسة الخصى صبيح الذى أمر بأن يعامله بالاحترام اللائق بمكانته السامية .

وهذه الدار التى أسر فيها الملك لويس التاسع لاتزال باقية بالمنصورة بجوار مسجد الشيخ الموافى وهكذا ابتدأت معركة المنصورة وأنتهت بنصر ساحق للمصريين .

المفاوضات

وفى هذا الوقت كانت المفاوضات دائرة مع الملك من جهة ومع النبلاء من جهة أخرى ولكنه كان فوق مقدور الملك أن يستجيب لطلبات السلطان الذى أصر على تسليم بعض الحصون فى الأراضى المقدسة أو التابعة لفرسان المعبدين أو فرسان رودس . وقد استعملوا مع الملك — لكى يحملوه على الخضوع لمشيئتهم — كل وسائل التهديد ولكنه لم يتزعزع ، بل قال لهم إنه طالما كان أسيرهم فلهم أن يفعلوا به مايرونه .

وأخيرا تم الاتفاق على تسليم دمياط بكل مافيها ، وعلى أن تدفع الملكة التى كانت هناك إذ ذاك فدية قدرها مليون بيزانت ذهبية (٥٠٠,٠٠٠ جنيه) غير أنه حين اقترح على الملك هذا الشرط الأخير ، قرر بشهامة وأنفة أنه سيدفع هذا المبلغ عن رعاياه . وأما فديته فهى مدينة دمياط نفسها ، لأن مقامه من السمو بحيث لايصح أن يقدر فديته بمال .

فأعجب السلطان ومن حوله بهذه النفس الكريمة العالية وأيما اعجاب وصاح قائلا : "بشرفى إن هذا الفرنسى شهم أبى النفس . طالما أنف المساومة فى هذا المبلغ الفادح ، بل قبله بلا جدال ! اذهبوا و بلغوه عن لسانى أننى نزلت له عن مائتى ألف قطعة هدية منى اليه ، فلن يدفع سوى ثمانمائة ألف .

وأخيرا تم إبرام اتفاق التسليم ونقل الملك وفى معيته بعض النبلاء الى فارس كور ، وتسلم المصريون دمياط بعد أن استولى الفرنج عليها أحد عشر شهرا وتسعة أيام .

ثم أفرج عن الملك بمجرد أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار كما أخلى سبيل أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه وسائر الأسرى الذين بلغ عددهم حوالى ١٢٠٠٠ أسير . وركبوا البحر قاصدين ثغر عكا .

الملك الأسير لويس التاسع فى المنصورة

وللشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح قصيدة طريفة فى وداع الحملة الصليبية نرى أن نقتطف منها ما يلى :

قل للفرنسيس اذا جئته ... مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهم ... إلا قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن يكن "البابا" بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا إنه ... أنصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم إن أزمعوا دعوة ... لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باقٍ والطواشى صبيح

الجيش الأيوبى

كان قوام الجيش فى نهاية العصر الأيوبى وفى مستهل عصر المماليك ثلاث فئات من الأجلاب الذين نشأوا فى القوقاز وآسيا الصغرى وغير ذلك من الأقاليم . وأولى تلك الفئات المماليك السلطانية وهم الذين يشتريهم السلطان أو يهدون اليه أو يرثهم من مماليك من سبقه فى السلطنة . ومن هذه الفئات المماليك الخاصكية وتتميز أفرادها عن سائر لمماليك السلطانية بأنهم شبوا فى خدمة السلطان . فيتولى تربيتهم ثم يعتقهم — أما الفئة الثانية من الجيوش النظامية فهى أجناد الحلقة وأفرادها من محترفى الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم وهى أقرب الفئات الى نظام الجيش الثابت فى العصور الحديثة . وكانت تتناول مرتباتها من ديوان الجيش . والفئة الثالثة مماليك الأمراء وهى لا تختلف عن المماليك السلطانية إلا أن أفرادها تابعون لأمرائهم وطبيعى أن الوحدات الحربية التى كان الأمراء يتقدمون بها لمساعدة السلطان فى حروبه كانت تتألف من هذه الفئة . وكان أمراء الجند على أربع طبقات :

الطبقة الأولى : أمراء المئين مقدمو الألوف وعدة كل منهم مائة فارس . وكانت هذه الطبقة أعلى مراتب الأمراء . ومنهم أكابر أرباب الوظائف والنواب .

الطبقة الثانية : أمراء الطبلخانة وعدد كل منهم فى الغالب أربعون فارسا . وازداد أحيانا هذا العدد الى السبعين والثمانين ولا تكون الطبلخانة لأقل من أربعين .

الطبقة الثالثة : أمراء العشرات وعدة كل منهم عشرة فوارس

الطبقة الرابعة : أمراء الخمسات وهم قليلون

أما الجنود فقد تألفت منهم طبقتان

الطبقة الأولى : المماليك السلطانية وهم أعظم الجنود شأنا وأرفعهم قدرا وأشدهم الى السلطان قربا وأوفرهم مخصصات . ويتوقف عددهم من الكثرة والقلة على مشيئة السلطان .

الطبقة الثانية : أجناد الحلقة وعددهم كثيرون غير نظاميين وينضمون إلى الجنود عند الضرورة .

وقد زاد نفوذ المماليك فى أواخر عهد الأيوبيين وخاصة بعد انتصارهم على الصليبيين فى معركة المنصورة . تلك المعركة التى كانت من أقوى عوامل ظهور شان بيبرس والمماليك البحرية ، الذين بفضلهم تخلصت البلاد الإسلامية من بلاء الغرب .

المماليك البحرية

(١٢٥٠ م — ١٣٨٢ م)

ورث المماليك أسرة الأيوبيين فاتسعت الأمبراطورية المصرية فى عهدهم حتى شملت السودان والحجاز والشام وبعض جزر البحرين الأبيض والأحمر . وفى طليعة سلاطينهم الظاهر بيبرس البندقدارى — ذلك القائد الماهر والسياسى الذكى والمصلح الحازم الذى قضى معظم سنى حكمه خارج مصر يعلى كلمتها ويهزم أعداءها — حصن الاسكندرية وحمى مصب النيل ضد الغزوات الخارجية كما أعاد للأسطول المصرى سابق مجده . فبنى أربعين سفينة حربية واحتفظ بجيش منظم علاوة على ربط ثغور البلاد ومدنها بشبكة من الطرق والدروب .

لم يكن الظاهر بيبرس أول سلاطين المماليك البحرية — فقد كان أولهم "عز الدين أيبك التركمانى" وثانيهم إبنه وثالثهم الملك المظفر "قطز" الذى كان على يديه هزيمة التتار فى معركة "عين جالوت" بفلسطين بعد أن أبادوا الدولة العباسية ببغداد قبل زحفهم على الشام .

وتفصيل هذا أنه فى أوائل عام ١٢٦٠ م أرسل هولاكو ملك التتار خطابا هدد فيه سلطان مصر إذا امتنع عن التسليم إليه . فكان رد "قطز" أنه أمر بقتل الرسل الذين حملوا الخطاب وعلقت رءوسهم على باب زويلة "المتولى" ثم جمع أمراءه للمشاورة فى الأمر وقد أحدق الخطر بمصر فقر القرار على القتال — وألا ينتظروا تقدم التتار إلى الحدود المصرية .

خرج "قطز" السلطان الشاب على رأس جيش مصر من قلعة الجبل ومر بالصالحية ثم بلغ حدود فلسطين قبل أن يقوم التتار بتجميع قواتهم فاضطر قائدهم "بيدر" إلى التخلى عن غزة فاحتلها القائد بيبرس وتقدم

متجنبا التلال ومتبعا طريق الساحل إلى يافا وقيصرية — إلى أن وصل جبل "الكرمل" جنوب حيفا وعسكر الجيش فى سهل ازدرائيلون قرب عكا التى كانت فى أيدى الصليبيين وكانت خطة قطز وبيبرس فى هذه المعركة تقليدا رائعا لأسلوب التتار أنفسهم فى القتال — وعلى الأخص طريقة التظاهر بالفرار . وقد رأى هذان القائدان أن وجود المستنقعات حول بلدة بيسان سيضطر التتار للتحول فى تقدمهم صوب الجنوب الغربى . وأنهم لا بد نتيجة لذلك أن يصطدموا بالنصف الآخر من خطوط المصريين فدبروا خدعة باهرة تقضى بأن ينسحب الجزء الذى يشتبك به أولا متظاهرا تاركا ثغرة فى جبهة الجيش المصرى فيندفع فيها التتار اندفاعهم المعهود . وبعد أن يتورطوا فى الاختراق إلى مسافة كافية يطبق عليهم المصريون من جهات ثلاث .

بدأت المعركة فى صباح يوم الجمعة ٣ سبتمبر عام ١٢٦٠ م كما توقع قطز بهجوم عنيف قام به التتار على يسار الجبهة — فتظاهر المشاة بالفرار والهزيمة فحدثت ثغرة اندفع فيها التتار بقوة فتركهم المصريون حتى وصلوا فيها مسافة مناسبة ثم أطبقوا عليهم وانقض السلطان بفرسانه المنتخبين من فرقة الملك الصالح خلال قرع الطبول كأنها الرعد القاصف .

وفى أثناء ذلك عاد المتظاهرون بالفرار من المشاة . واشتركوا فى القتال بعزم صادق . واستمرت المذبحة من الصباح حتى الظهر — وانتهت بهزيمة التتار . وقتل قائدهم " كتبغا نوين " . وقد قتله بطعنة واحدة أمير من أمراء مصر — هو جمال الدين أقوش الشمسى . ثم قام فرسان بيبرس على الأثر بمطاردة التتار حتى أخرجوهم من سوريا وفلسطين[1] .

---

(١) معركة عين جالوت — للصاغ محمود محمد السرساوى — مجلة الجيش — المجلد السابع . ص ٢٤٣ — ٢٤٨ — ومقال الأستاذ أحمد رمزى عن المعركة فى مجلة الرسالة — العدد ٦٦٥ — أول أبريل سنة ١٩٤٦

وكان التتار يؤمنون بعبقرية كتبغا ويستبشرون به خيرا . إذ هو الذى أخضع البلاد لهم من حدود فارس الشرقية إلى حدود الشام . ولما قتل ذهب سعدهم وألف قوادهم الهزيمة . واعتاد رجالهم الفرار .

ولم تكن تلك الهزيمة هى الأخيرة للتتار على يد المصريين بل لقد اصطدمت بهم فى معارك شتى بحافل مصر وهزمتهم على أيدى بيبرس وقلاوون — وكان انتصار مصر فى "عين جالوت" منقذا للمدنية الاسلامية وللعالم أجمع من فظائع التتار ودرسا للصليبيين الذين كانو ما زالوا قابعين فى بعض مدن الساحل السورى داخل قلاعهم .

* * *

ولكى نتصور ما كان يصيب مصر والعالم الإسلامى لو أنها لم تدفع التتار وتهزم جيوشهم فى "عين جالوت" . نذكر ما فعلوه بقيادة هولاكو فى بغداد قبل اصطدامهم بالمماليك المصريين بعامين .

فقد أسروا الخليفة المستعصم ثم قتلوه وأولاده، واستقر هولاكو فى قصر المأمونية ، بينما عمل جنوده فى ذبح الأهالى . ثم أضرموا النيران فى بغداد . فخربت معظم الشوارع والدور وأتلفت أهم المساجد ليحصلوا على قبابها . المذهبة. كما هدموا القصور بعد أن جردوها من التحف والألطاف النادرة. وخربوا دور الكتب وأتلفوا محتوياتها إما بإحراقها أو برميها فى دجلة . ولقد وصف المؤرخون ما أتاه التتار فى بلاد العباسيين بما يدل على فظاعتهم ووحشيتهم .

لكن لم ينعم "قطز" طويلا بهذا الانتصار الحاسم . فلم يكد يصل إلى الصالحية التى خرج منها على رأس جيشه الظافر حتى تمت مكيدة قتله بسيف القائد بيبرس ومماليكه وتركوه جثة هامدة على الأرض .

وهكذا انتهت حياة بطل عظيم — ثم خلفه على العرش الأمير بيبرس .

الظاهر بيبرس :

هزم بيبرس التتار فى عدّة مواقع أهمها فى بيرة (عام ٦٧١هـ — ١٢٧٨م) وفى عودته قصد الكرك فقتل سبعة آلاف من أعدائه واستولى على العرش السلجوقى . ولم يكن المغول وحدهم الذين ذاقوا مرارة الهزيمة على يد المصريين — فلقد أعلن بيبرس الحرب المقدّسة لمدّة عشر سنوات فى فلسطين حيث تحالف الفرنجة مع التتار واستولى على قيصرية وعرصوف (٦٤٣ هـ — ١٢٦٥ م) وأذل مدافعيها من الصليبيين وصمم بيبرس على قطع علاقتهم بتلك البلاد نهائيا فاستولى على يافا عام ١٢٧٣ م ثم وضع يده على حصون الصليبيين وقلاعهم . وفى أيامه استولى الأسطول المصرى على قبرص .

وقبل وفاة بيبرس كانت أوامره تصدر وتطاع من بيراموا س والفرات إلى جنوب بلاد العرب ومن هناك الى شلال النيل الرابع وكانت المدن المقدسة مكة والمدينة وبيت المقدس فى قبضته . كما وضع يده على سواكن وغيرها على شاطئ البحر الأحمر . وخضع له عرب الصحراء وبربرة الشمال ومغول القفجاق وأصبح «خانهم» حليفا له وأرسل ابنته للزواج منه وتبادل الظاهر السفراء مع عاهل الامبراطورية الشرقية وشيد مسجدا فى الآستانة واتصلت تجارة المصريين بصقلية وأسبانيا وفرنسا . وما زال لبيبرس الذكر الحسن عندنا . فقصته يرويها المنشدون فى مجالس أهل البلاد — ومن المساجد التى شيّدها مسجده الكبير بالحسينية والمعروف بجامع الظاهر . وبوفاته حدثت منازعات بشأن تولى الملك انتهت بتولى السلطان قلاون سنة ١٢٧٩ م فبقى الملك فى بيته أكثر من مائة سنة . ومن مآثره أنه هزم التتار فى معركة فاصلة فى حمص . وكانوا يتأهبون للإغارة على مصر مرة أخرى . ومن مآثره أيضا إنشاؤه البيمارستان الكبير والمعروف الآن بمستشفى قلاون بالنحاسين وبجانبه المدرسة والقبة التى دفن بها .

وخلفه ابنه الأشرف خليل ، وفى عهده سقطت عكاء فى أيدى المسلمين وتبعتها بقية مدن الشام الساحلية وقضى على ما كان باقيا من حكم الصليبيين هناك (١٢٩١ م)

وقد هزم التتار أيضا الناصر محمد بن قلاون فى معركة مرج الصُّفر قرب دمشق (١٣٠٣م) فكانت هذه رابع مرة صد فيها التتار عن الديار المصرية .

استطاع هؤلاء السلاطين البواسل أن يجعلوا بحر الروم بحيرة مصرية وصدوا هجوم التتار وجعلوهم حلفاء كما قضوا نهائيا على الصليبيين .

ومهما يكن من شئ فان جهود الغزو والفتح والنضال لم تشغلهم عن ترقية أحوال مصر ، فأقاموا المدارس والمشافى والقناطر والمساجد .

وخلدوا ذكراهم المجيدة فى كل مكان وجعلوا من القاهرة أجمل مدن الشرق بما أدخلوه عليها من جديد فى طرز العمارة والفنون .

وكفى أن نذكر من مآثرهم الخالدة فى القاهرة مدرسة الناصر قلاون بالنحاسين ، والمدرسة الجاولية ، وخانقاه بيبرس الجاشنكير ، ومسجد السلطان الناصر محمد بالقلعة ، وقصر بشتاك ، وجامع المارداني ، ومسجد السلطان حسن بميدان صلاح الدين .

وكان آخر سلاطين المماليك البحرية الصالح حاجى بن الأشرف شعبان الذى انقرضت فى أيامه هذه الدولة ، وقامت على أنقاضها أسرة المماليك الشراكسة عام ١٣٨٢ م .

يحمل أعضاء الفتوة على دروعهم وأسلحتهم شعار الكأس والسراويل

المماليك الشراكسة

(١٣٨٢ — ١٥١٧ م)

ولع سلاطين الشراكسة المصريين بالعلوم واقامة العمائر التى نراها إلى اليوم فى القاهرة وأشهر ملوكهم[١] السلطان برقوق ١٣٨٢ م

وفى أيامه أراد التتار — بعد اعتناقهم الاسلام — امتلاك مصر بقيادة قائدهم العظيم تيمورلنك فأرسلوا اليه كتابا يطلبون منه تسليم مصر[٢] فامتنع واتحد مع أمراء شمالى الشام وسلطان آل عثمان وأعد العدة لصدهم بيد أنه مات قبل نشوب الحرب (١٣٩٩ م) .

فقام ابنه "فرج" ونجح فى ابعاد الخطر التترى عن مصر بدون قتال وانتهت ايامه بالعزل وأخيرا مات مقتولا .

ومن أعظم سلاطين الأسرة ، السلطان الأشرف برسباى (١٤٢٢ م) الذى قضى على مملكة قبرص نهائيا وكانت تهدد مصر على الدوام بعد انسحاب الصليبيين من الشام .

كان برسباى أعلى ملوك الشراكسة همة وأشدهم عزيمة ، وقد وصلت الحدود المصرية فى عهده إلى أعالى الفرات ، وكان الجيش فى أيامه يكلف الدولة حوالى ٣٠٠ ألف جنيه سنويا .

وطبيعى أن هذا المبلغ لايشمل مرتبات الجند فقد كان لهم اقطاعاتهم الخاصة يعيشون من دخلها .

---

(١) كان للسلطان برقوق ولع خاص باقتناء الأسلحة والخيول والعتاد والاستكثار من الجند وفى أيامه أعيد بناء خزائن السلاح بالأسكندرية .

(٢) كان قد أتم فتوحه فى الهند والعراق وبعض أجزاء آسيا الصغرى وشمال الشام .

قلنا إن أهم حملات برسباى تلك التى وجهها ضد قرصان البحر الذين اتخذوا من جزيرة قبرص وكراً لأعمالهم الشريرة ، فسيّر السلطان أسطولا مكوّنا من عدة سفن عقد لواؤها لأمير البحر المصرى " جرباش " وعاد منتصرا الى القاهرة ومعه الغنائم والأسرى . وفى العام التالى رغب السلطان فى احتلال قبرص. فتم للحملة المصرية اخضاع الجزيرة بعد معركة "شيروكينا" ووقع ملكها " لوزينان " أسيرا فى أيدى المصريين وتمت غزوة قبرص ونال الغزاة أمنيتهم وحققوا مآربهم وعادوا الى مصر ثم أرسلوا رسلا يعلنون الخبر وقضوا أياما يحتفلون بالنصر وكان السلطان ورعيته متعطشين الى سماع أخبار الحملة التى انقطعت عنهم — وأخيرا وصلت أنباء الظفر الى القاهرة فأعلنت الأفراح وتبودلت التهانى وقامت معالم السرور ثلاثة أيام كاملة وبدأت الاستعدادات ومعالم الزينة والحفاوة تنظم لاستقبال المنتصرين عند عودتهم لمصر .

وفى أوائل أغسطس وصلت مقدمة الأسطول المصرى الى دمياط فخرجت القاهرة لاستقبال مواكب النصر تشق طريقها من الصحراء الى قلب المدينة التى تدفقت بألوف الخلق الوافدين من الأقاليم لاستقبال الجيوش المنتصرة وكان فى طليعة الموكب الملك " جانوس " الأسير . والقائد " موسينى سوارس " يمتطيان بغلين وأمامهما تاج قبرص والأعلام الملكية تتبعهما الألوف . فلما وصل الموكب الى القلعة نزل الملك عن دابته أمام باب المدرج وقبّل الأرض وخلع غطاء رأسه واقتيد مكبلا بالحديد الى حضرة السلطان وكان يحيط به علية رجال دولته وعلى رأسهم شريف مكة ، وتصادف أن كان حاضرا هذا الجمع العظيم طائفة من رجال الوفود الأجنبية فأمر " جانوس " بتقبيل الأرض أمام السلطان ولكنه أغمى عليه فلما أفاق انحنى أمام السلطان ثم انتحى جانبا لكى يحلى السلطان عينيه بمشاهدة الغنائم والأسلاب والأسرى — ثم أُحضر "جانوس" الى مجلس السلطان وقبّل الأرض ثانية وتُرك واقفا لحظة طويلة ينظر اليه السلطان الذى أمر بأن يودع فى برج من أبراج القلعة وأن يعامل معاملة تليق بمقامه .

وفى يوم آخر سأل السلطان الملك لوزينيان عن الفدية التى يفدى بها نفسه فأجاب :

" لا شىء عندى سوى حياتى ولكم أن تتصرفوا فيها كيفما شئتم " .

ولما توسط القناصل الأوربيون — أمر السلطان بإكرام وفادة الملك وقبل تخفيض قيمة الفدية الى أربعمائة ألف دينار وصرح لأحد رجاله أن يرجع الى قبرص لجمعها اعتمادا على وعده بأن يعود — ثم وعد الملك بتوزيع ٧٠ ألف دينار لرجال الحاشية وبارسال عشرين ألف دينار الى السلطان سنويا . وبقى الملك ضيفا كريما على آسره خمسة عشر شهرا حتى جمعت الفدية ثم خلع عليه السلطان ثوبا ثمينا وأمر بنقله فى عربة فخمة الى بيت الحاكم حيث ظل موضع إكرامه بضعة أيام قبل أن يرتد الى بلاده — وبقيت قبرص تدفع الجزية لمصر حتى نهاية عصر المماليك (١٥١٧ م) .

غزوات رودس :

كانت محاولات سلاطين الشراكسة للاستيلاء على رودس أثناء القرن الخامس عشر ردا على ما أنزلته وزميلتها قبرص وأحلافها من الأوربيين من الدمار بالشواطئ المصرية وثغرها الاسكندرى ، وسعيا وراء تأمين التجارة المصرية من عبث القراصنة الذين كانوا يهاجمون السفن المصرية ، وللقضاء نهائيا على زعماء الفكرة الصليبية الذين اتخذوا من رودس وقبرص معقلا للدعوة اليها واحيائها — مثل آل لوزينيان بقبرص والفرسان الاسبتارية برودس . فكان السلطان جقمق (١٣٤٨ — ١٤٥٣ م) يود أن يستقيم له الأمر مثل ما استقام لبرسباى فى مصر .

وغادرت الحملة البحرية الأولى بولاق فى اليوم الثامن من شهر أغسطس سنة ١٤٤٠ م بقيادة الأميرين تغرى برمش السلاح دار و بونس المحمودى اميرا خور معهما بعض المتطوعين من اهل القاهرة ودمياط بلغ عددهم حوالى الألف . وفى قبرص أمد الملك حنا الثانى الحملة المملوكية بالمؤن . واستمدت

الحملة معونة أخرى من آسيا الصغرى. ولكن كان استعداد الرودسيين كاملا فلم يظفر المصريون منهم بطائل وعادت الحملة . وجهزت حملة ثانية (١٤٤٣ م) وأخرى فى العام التالى ولكنهما لم يظفروا بشئ . وكانت من نتائجهما أن ضعفت حاميات رودس وكبح جماح القراصنة فلم يعودوا إلى اعتداءاتهم على السواحل المصرية — ثم عقدت معاهدة بين السلطنة المملوكية وجزيرة رودس ودامت العلاقات الطيبة بين الجانبين عدة سنين — الى أن جاء العثمانيون الى مصر فى عام ١٥١٧ ثم خضعت الجزيرة للعثمانيين فى عام ١٥٢٢ بعد حصارها [١].

السلطان الأشرف قايتباى :

جاء بعد جقمق سلاطين ضعاف الى أن ولى العرش السلطان قايتباى (١٤٦٧ — ١٤٩٥ م) فى زمن نهض فيه آل عثمان نهضة جامحة عمادها الفتح — فاستعد قايتباى وبدأ يحصن الثغور والقلاع فى البلاد الشامية والمصرية ويعد الجيوش لكى لا يفاجأ — وفى ذلك الحين وصل الأمير « جم » أحد أبناء سلطان آل عثمان بعد هزيمته أمام أخيه فى معركة " يكى شهر " والتجأ الى قايتباى فاكرم وفادته وقال " اذا كان لا بد لنا من محاربة العثمانيين فلنكن مهاجمين أولى من أن نكون مدافعين " وبدأ يشن هجومه على المدن العثمانية فى الأناضول ويأسر حامياتها حتى دانت للمصريين عدة مدن . وفى احدى المعارك هزم الأمير الأزبكى المصرى الجيش العثمانى وأسر قائده أحمد الألبانى بعد أن جاهد جهادا حسنا . وعاد الازبكى الى مصر ظافرا . وشيد جامعه بالأزبكية .

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد فقد استمرت الحرب بين الأتراك والمصريين وهما يتبادلان النصر والهزيمة الى أن عقد الصلح بين الطرفين .

---

(١) المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس زمن سلاطين المماليك فى القرن الخامس عشر الميلادى لحضرة الأستاذ محمد مصطفى زيادة — مجلة الجيش — المجلد الثامن ص ١٩٤ — ٢٠٤

ولقايتباى قلعتان مشهورتان إحداهما بالاسكندرية والأخرى برشيد . وقد شيّد عدة مساجد وعمائر تعد مثلا جميلا للعمارة المملوكية فى مصر .

وفى أيام السلطان الغورى (١٥٠١ — ١٥١٦ م) استغل البرتغاليون طريق الكاب الى الهند فأثر ذلك فى تجارة مصر وجمهورية البندقية . فجهز أسطولا قويا وهاجم به البرتغاليين فى مستعمرتهم بالهند وانتصر على قائدهم " لورنزو " فى معركة بحرية عام ١٥٠٨ جنوبى بومباى . وكان أقصى مركز وصل اليه النفوذ المصرى فى الجنوب — ولم يلبث الحال وقتا طويلا حتى عاد الأسطول المصرى الى بلاد العرب — وفى أيامه جهز السلطان سليم الأول جيوشه لفتح مصر . فأرسل سنان باشا على رأس جيش عثمانى مؤلف من أربعين ألف مقاتل فاستولى على ديار بكر — وقام بعده السلطان بجيش عظيم بلغ مائة ألف وخمسين ألف مقاتل ومعه المدافع الكثيرة العدد وارسل المولى ركن الدين قاضى عساكر الروملى مع قره جى باشا إلى السلطان الغورى للوقوف على نوايا البلاد وأحوالها .

السلطان الغورى :

توجس الغورى شرا من استعدادات السلطان سليم ولا سيما حين وصلت الأساطيل العثمانية إلى مياه الاسكندرية فاهتم بالاستعدادات الحربية وخرج على رأس جيش عظيم إلى حلب ثم عينتاب وتابع سيره إلى مرج دابق وبالقرب من حلب (٢٦ رجب ٩٢٢ هـ — ٢٤ أغسطس ١٥١٦ م) تلاقت جنوده مع جنود الغورى فقاتلت القوات المصرية قتالا عنيفا وهزمت العثمانيين وأسروا سبعة سناجق وبعض المكاحل — وحاول سليم الأول الفرار بعد أن قتل من جنوده أكثر من عشرة آلاف . ولكن دارت الدائرة فيما بعد على الجيش المصرى وقتل قائد الجيش " سودون " وملك الأمراء " سيباى " وكانت قوات الأعداء قد اشتد هجومها فوقع الغورى تحت سنابك الخيل وهرسته أقدامها ولم تظهر جثته بين القتلى .

ثم وردت الأنباء بخروج القوات العثمانية من غزة ووصولها قاطية داخل الحدود المصرية فقابل الجيش المصرى هـذه الاشاعة بتحصين الريدانية تحصينا كاملا و إقامة سور لستر المكاحل التى أقيمت ثم حفرت خنادق كبيرة وعرض السلطان قواته ثم تقدّم بها حتى بركة الحاج وكانت مواقع الجنود تمتد من الجبل الأحمر إلى حقول المطرية . وبعـد أيام بلغ العثمانيون بلبيس وتحوّلوا منها إلى بركة الحـاج فاضطربت أحوال الجيش وأغلقت أبواب الفتوح و باب النصر و باب الشعرية و باب البحر و باب القنطرة وغيرها من أبواب القاهرة . ولمـا ثبت للسلطان وصول مقدمة الجيش العثمانى إلى بركة الحاج جمع قواته وصار يرتبها فى مواقعها بالريدانية وحصن معسكره بالمكاحل والمدافع وجعل خلف المكاحل نحو ألف جمل عليها المؤونة و بدأ ينتظر وصول العثمانيين مع أنه لو تقدّم لمقاتلتهم ببركة الحاج لكان من المحتمل أن ينتصر عليهم ولكن بعد أيام زحف العثمانيون حتى وصلوا إلى الجبل الأحمر — فلما سمع طومان باى بتقدم الأعداء قام على الفور بقواته التى تلاقت معهم فى ضواحى الريدانية . وفى ذلك الميدان حصلت المعركة الفاصلة بين المصريين والعثمانيين — كان ذلك اليوم هو التاسع والعشرين من ذى الحجة عام ٩٢٢ الموافق ٢٣ يناير سـنة ١٥١٧ . ولم تدم المعركة أكثر من ساعة قضى فيها على الجيش المصرى وأصيب فى صميم كبريائه . أما السـلطان طومان باى فقد صمد فى مكانه وهو يقاتل بنفسه فى قليل من الرماة والمماليك السـلحدارية ، ولكنه لمـا رأى قـلة عدد من أصبحوا حوله خشى أن يقبض عليه و ينكل به فطوى صنجقه السلطانى وولى واختفى . وقيل إنه قصد طره فمـا كان من إحدى فرق الجيش العثمانى إلا أن اتخذت طريق تقدمها من تحت الجبل الأحمر و نزلت على الوطاق السلطانى فنهبته واستولت على جميع معدات الجيش فيه ، بينما استطاعت جماعات عدة من فلول الجيش العثمانى دخول القاهرة من نواح شتى ، و بعد أيام قليـلة دخل السلطان سليم إلى القاهرة من باب النصر مخترقا المدينـة فى موكب حافل وأمامه الجنود المشاة والخيالة حتى وصل باب زويلة ثم عرج من تحت الربع

وتوجّه من هناك إلى بولاق . واستمرت المناوشات بين فلول الجيش المصرى والعثمانى مدة حتى انتهى الأمر بشنق السلطان طومان باى على باب زويلة . فتخلص السلطان من منافسه . وأقام السلطان سليم فى مصر ثمانية أشهر إلا أياما قلائل قضى أكثرها بالمقياس بالروضة ثم غادر البلاد .

الحامية العثمانية :

نصب السلطان سليم على البلاد حاكما يلقب بالباشا وجعل فى مصر ثلاث إدارات كل منها تراقب أعمال الأخرى فلا يخشى من اتحادها وتمردها . فالقوة الأولى " الباشا " وأهم واجباته إبلاغ الأوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها . والقوة الثانية والوجاقات الستة وواجباتها حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وجباية الخراج . وقد وزعت هذه الوجاقات فى القطر المصرى وفى المراكز الرئيسية من القطر وكان عددها ستة آلاف خيال وستة آلاف من المشاة . وكان كل وجاق تحت قيادة أغا ينوب عنه فى الآستانة ضابط . وقد ذاقت البلاد فى العهد العثمانى ضروب الذل والجهل والفقر، ومع ذلك استطاع على بك الكبير أن يشق عصا الطاعة ويعلن استقلال مصر ويحارب الترك . ولولا خيانة أحد رجاله " أبو الذهب " واتفاقه مع العثمانيين لانتهى سلطانهم فى مصر قبل أوانه .

جنود محمد على

ظفر مصر فى ميادين خالدة

وكان الأزهر فى العهد التركى — المعهد الكبير الذى انبعث منه العرفان — ولولاه لانطفأت شعلة العلوم فى مصر وقدظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والجراكسة حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل فى أيام الفواطم والأيوبيين — ويعود لهؤلاء السلاطين الفضل فى انقاذ الثقافة الإسلامية من غزوات التتار التى كادت تقضى على المعرفة العربية فى المشرق . وكانت مصر محط أنظار الناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار من فارس والعراق وخوراسان والشام واستظلت العلوم والآداب برعاية سلاطين المماليك فى مصر . ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء كالبوصيرى صاحب البردة والسراج الوراق . وابن نباتة المصرى والقلقشندى . والأبشيهى صاحب المستطرف . وابن منظور صاحب لسان العرب وابن هشام النحوى ، وشمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ صاحب وفيات الأعيان ، والعينى المؤرخ والمحدث . وابن دقماق والمقريزى صاحب الخطط وأبو الفداء الجغرافى المؤرخ . والذهبى والنويرى وابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة وجلال الدين السيوطى والدميرى وابن إياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى .

واستضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة فى الشرق كالإمام ابن تيمية وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون الذى اقام بمصر زهاء عشرين عاما .

ولقد كان أكبر نصيب لمصر فى الثقافة الأدبية الإسلامية إنما هو ما كتبه المصريون فى التاريخ والحق أنه ليست هناك أمة إسلامية أخرى تستطيع أن تفخر بمثل ما خلفه المصريون من دراسات فى تاريخ بلادهم وأنظمتها السياسية . والمؤرخون المصريون فى عصور دولتى المماليك أو الدولتين

الفاطمية والأيوبية لم يكتبوا فى التاريخ السياسى وفى التراجم فحسب ، بل فاقوا سائر الكتاب المسلمين فى دراسات الخطط والآثار التى يعتبر المقريزى بطلها الممتاز[1] .

وقد أنجبت مصر عدداً وافراً من المؤرخين ، وحسبنا أن نذكر ابن الحكم وابن الداية والكندى وابن زولاق وابن أبى أصيبعة وابن الراهب القبطى والعماد الأصفهانى وأبا شامة وابن واصل والقفطى وابن خلكان وابن شداد والذهبى والمقريزى والعينى وابن تغرى بردى وأبا الفداء والسخاوى وغيرهم ممن ذكرناهم .

وكانت مصر والشام مهد الموسوعات والمجاميع الاسلامية ، فإن معظم الذين ألفوا الكتب الجامعة للموضوعات المختلفة كانوا من المصريين أو كانوا من الشاميين فى عصر اتحاد البلدين ، فالنويرى صاحب " نهاية الأرب فى فنون الأدب " كان من رجال السلطان المملوكى الناصر محمد قلاون وابن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » تولى القضاء فى مصر فى عصر المماليك وأبو العباس أحمد القلقشندى صاحب " صبح الأعشى " كان أيضا من الموظفين المصريين فى ذلك العصر ، وجلال الدين السيوطى تولى الافتاء بمصر وتوفى فى بداية القرن السادس عشر الميلادى بعد أن ألف الكتب والرسائل العديدة فى التفسير والحديث والتاريخ والفقه وعلوم اللغة وغيرها .

ومن العلماء المصريين الذين نبغوا فى ميدان العلوم أبو كامل شجاع ابن أسلم وعلى بن يونس وابن الهيثم وعلى بن النفيس ، أما شجاع فقد ذاع صيته فى علم الجبر فى القرن العاشر (م) وكتب فيه ، وابن يونس اشتهر بالرياضيات والفلك فى العصر الفاطمى واخترع الرقاص أو بندول الساعة الدقاقة وكان لأرصاده الفلكية وبحوثه العلمية أثر كبير فى علم الفلك ، أما ابن الهيثم فكان

---

(١) مصر والحضارة الاسلامية — للدكتور زكى محمد حسن — الرسالة الخامسة عشرة من رسائل الثقافة العسكرية .

أكبر علماء المسلمين فى الطبيعة، بل أعظم علماء الطبيعة فى العصور الوسطى ولولاه لما أتيح لعلم البصريات أن يصل إلى ما هو عليه الآن . وقد ترجم كتابه فى هذا العلم إلى اللاتينية سنة ١٥٧٢ م وأخذ عنه علماء أوروبا جميع معلوماتهم ، ولا سيما فى انكسار الضوء وتشريح العين وكيفية تكوين الصور على شبكة العين [١] .

وممن اشتهروا بمصر فى ميدان الطب على بن النفيس الذى كان رئيس الأطباء فى مارستان قلاوون بالقاهرة والمتوفى سنة ١٢٨٨ — وقد كتب شرحا لتشريح ابن سينا وقد اهتدى إلى حقيقة الدورة الدموية الصغرى (دورة الدم من البطين الأيمن فى القلب إلى الرئتين ثم إلى البطين الأيسر قبل أن يكتشفها الأوربيان "ميشيل رفت" (١٥٥٦م) و"ريالدوكولومبو (١٥٥٩ م) وسبقتهما إلى ذلك بنحو ثلاثة قرون .

ولا ريب فى أن أعظم علماء الحيوان عند المسلمين هو محمد بن عيسى الدميرى المصرى المتوفى بالقاهرة ١٤٠٥ م وأحسن مؤلفاته كتاب "حياة الحيوان الكبرى" وقد ترجم إلى الإنجليزية والتركية .

ومن العلوم التى نضجت فى عصر المماليك — فنون الحرب والصيد والفروسية وقد نبغ فيها غير واحد خلفوا آثارا منها .

* "تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين" للأمير لاجين بن عبد الله الذهبى الحسامى الطرابلسى سنة ١٣٣٧ م .

* "كشف الكروب فى معرفة الحروب" لعماد الدين موسى بن محمد اليوسفى المصرى سنة ١٣٥٧ م ألفه للملك السلطان الظاهر جقمق فى فن الحرب.

* الفروسية لبدر الدين بكتوت الرماح الخازندارى نائب الاسكندرية (١٣٦٩ م) .

---

(١) نواح مجيدة من الثقافة الأسلامية — من مقال للأستاذ قدرى حافظ طوقان ص ١١٨ ، ١١٩

* الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية لمحمد بن منكلى نقيب الجيش فى زمن الأشرف شعبان سلطان مصر سنة (١٣٦٣ — ١٣٧٧ م) ويبحث فى السفن البحرية وقتال البحر، وللمؤلف كتاب اسمه "التدبيرات السلطانية فى سياسة الصنائع الحربية" .

*"الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية" لطيبوغا الأشرفى البكلميشى الرومى (١٣٦٨ م) ويبحث فى علم ركوب الخيل ولا سيما فى الحرب .

*" بغية القاصدين فى العمل بالميادين " يبحث فى الفروسية للأمير سيف الدين المارديني صاحب حلب (١٣٧٨م) .

*" خزانة السلاح " ألف باشارة السلطان محمد شاه بن السلطان مظفر شاه وقد فرغ من تأليفه عام ١٤٣٦ م .

*" الأنيق فى المجانيق " لأرنبغا الزردكاش (١٤٦٢) وقد وصف فيه أنواع المجانيق وكيفية العمل بها .

*السؤال والأمنية فى تعليم الفروسية .

*أرجوزة فى رمى السهام لأبى بكر الحلبى (١٥١٤ م).

وغير ما ذكرناه الكثير مما لا تتسع صفحات هذا السفر الصغير لشرحه ومن خير من أنجبهم عصر المماليك أحمد بن ماجد الذى وضع الكتب والرسائل فى علم البحار وتسيير السفن ، وكان لمؤلفاته وخبرته فضل كبير على الملاحة البرتغالية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد .

أما فى ميدان الفنون الاسلامية فقد كانت مصر مهد طرازين من أبدع الطرز الاسلامية ، هما الطراز الفاطمى ، والطراز المملوكى . ولا نجد لهذا الانتاج نظيرا فى سائر الأقطار الاسلامية — اللهم الا فى إيران — وحسبنا

أن نقرأ وصف الألطاف الفنية التى جمعها الخلفاء الفاطميون ، أو نرى التحف المحفوظة فى المتاحف والمجموعات الفنية الخاصة . أو نقلب النظر فى العمائر الاسلامية التى تزخر بها مدينة القاهرة والتى جعلتها أعظم متحف للطرز العمارية الاسلامية فى ممر العصور .

وهكذا نرى مصر ظافرة فى ميادين العلوم والفنون والآداب بجانب ظفرها الحربى — ومع الجمود الذى لازم مصر فى عهد حكم الأتراك ظهر بعض علماء الدين والتصوف واللغة والادب والتاريخ — نذكر منهم "شهاب الدين المصرى" ١٧٥٦م — الأديب اللغوى ، والسيد مرتضى الزبيدى (١٧٩١م) صاحب تاج العروس ، والذى كان مقربا للأمير اسماعيل كتخدا عزبان وأولاده ، وشمس الدين الشامى صاحب التراجم والسير ، وابن إياس المؤرخ صاحب بدائع الزهور فى وقائع الدهور — وابن زنبل الرمال مؤرخ عصر الأتراك الأول فى مصر ... وغيرهم .

الفرنسيون فى مصر

ثم جاء نابليون بونابرت إلى مصر على رأس حملته المشهورة عام (١٧٩٨ م) وكان موفقا فى بادئ الأمر — فقضى على شجاعة المماليك ولكنه لم يقض على وطنية المصريين الذين ظلوا يحاربونه ويقاطعونه ويفتنون فى مقاتلة رجاله فى حرب العصابات فى شوارع القاهرة ومديريات الوجهين البحرى والقبلى حتى ضاقت بهم المشانق ذرعا — وعن ذلك يقول أحد مؤرخى الحملة الفرنسية الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك فى كتابه (الحركة القومية)

" بدأت هذه القوة تظهر فى الميدان خلال السنوات التى قضاها الجيش الفرنسى فى البلاد وظهرت الأمة بشخصية جديدة وروح فتية وعزيمة قوية كونتها الحوادث والشدائد وصقلتها التجارب والآلام . كانت هذه السنوات الثلاث بمثابة مران على النضال والكفاح السياسى وتطور فى الحياة القومية . رأت الأمة خلالها من الحوادث والانقلابات ما فتح أعينها وهز أعصابها واستثار فيها روح التطلع إلى المجد والعلا . رأت نابليون بونابرت يخطب ودها ويشيد بعظمتها ويتملق كبرياءها القومى ويتغنى بماضيها ويعلن حقها فى أن تحكم نفسها بنفسها .

ثارت مصر فى وجه الحكم الفرنسى غير مرة فاعتادت مقاومة الاضطهاد ومكافحة القوة المسلحة وألفت خوض غمار الوقائع والمعارك — قاومت نابليون قاهر الملوك ومزلزل العروش ورأت خلاصة علماء فرنسا وأطبائها ومهندسيها يعرضون عليها آثار علمهم وفلسفتهم وحضارتهم وتجاربهم . رأت علوما وأفكارا جديدة ومنشآت ونظما حديثة رأت « ديوانا » مؤلفا من صفوة أبنائها بعد أن كان الديوان القديم مقصورا على المماليك وأيقظت الحوادث فيها روح المقاومة الشعبية — تلك الروح التى تنهض بالأخلاق وترقى الأفكار وتفتق الأذهان وتنير البصائر وتغرس الفضائل فى النفوس — وأخذ ترادف الحوادث فى خلال تلك السنوات الثلاث

يمزق أستار الصمت والجمود التى كانت تحجب عنها نور الحياة والنشاط — فلا غرو إن ظهرت الأمة المصرية العريقة فى الحضارة والمدنية بشخصية جديدة ولدتها الحوادث — وأن تقتحم ميدان النضال السياسى بروح معنوية جديدة تختلف كثيرا عن حالتها القديمة . وكذلك الأمم المستعدة للرقى تتطور نفسيتها وتتجدد شخصيتها تحت تأثير الحوادث السياسية والانقلابات . وهناك يظهر مبلغ استعداد كل أمة للرقى ومقدار ما هو كامن فى قرارة نفسها من المواهب الدفينة . فالأمة المصرية التى ظلت السنين الطوال رازحة تحت نير الاستعباد لم تفقد مواهبها القديمة التى ورثتها عن المدنيات المتعاقبة . بل كانت هذه المواهب كامنة تحت الرماد يعلوها الصدأ . فما إن صدمتها الحملة الفرنسية حتى أخذت تبدو للعيان كما تصقل المعادن وتجلى جواهرها فى لهب النار . ونهضت الأمة فى وجه الاحتلال الأجنبى تحمل بين جنبيها قوة حيوية كبيرة . ظهر الشعب المصرى فى الميدان قويا فتيالا يحمل الجهاد ولا ينكص على الأعقاب — ولما طويت صحيفة الغزوة الفرنسية ظل يناضل عن كيانه فى وجه العوامل المثبطة والقوات المتألبة عليه . وإذ تتبعت التقلبات التى أعقبت جلاء الفرنسيين رأيت العامل القوى ذا أثر فعال فى سير الحوادث وتطورها . فهذا العامل الوحيد الذى تمخضت عنه المقاومة المستمرة فى عهد الحملة الفرنسية أخذ ينمو ويترعرع ويشتد ساعده . وأبى أن يعود إلى نظام الحكم القديم أو أن يكون مطية لأهواء الدول الطامعة فى وادى النيل . وجعل يتطلع إلى نظام للحكم أرقى من النظم التى رزحت تحتها البلاد السنين الطوال " .

كانت هذه قوة الشعب لأنه لم يكن لمصر فى ذلك الحين جيش وطنى .

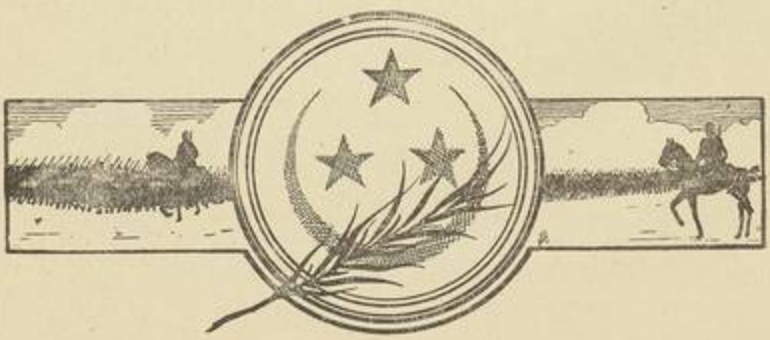

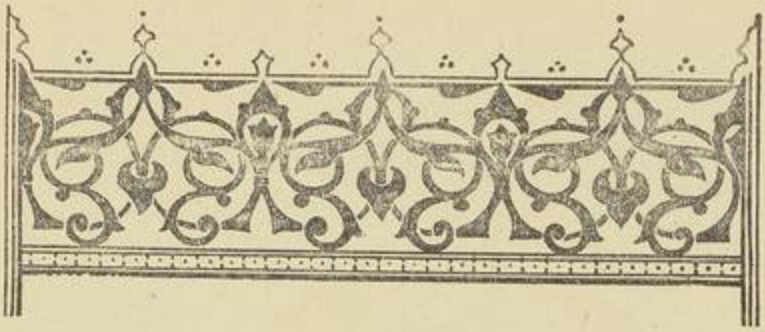

الأسرة المحمدية العلوية

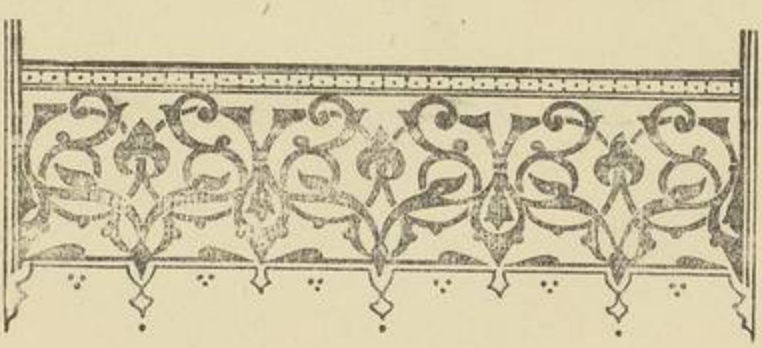

محمد على الكبير

محمد على

بعد خروج الفرنسيين من مصر ظهر على مسرح الأحداث المصرية الضابط محمد على الذى تقلد ولاية مصر عام ١٨٠٥ وهو الرجل العظيم الذى يعتبر مشيد نهضة مصر الحديثة .ومؤسس الأسرة الملكية الكريمة .

رأى محمد على أن الجيش هو الدعامة التى يشيد عليها ملكه الجديد فوضع نواة الجندية المنظمة فى أسوان عام ١٨٢٠ وأنشأ أول جيش قومى عرفته

مصر فى تاريخها الحديث . وعلى الرغم من قلة عدد السكان وما أورثها حكم الأتراك والمماليك من الفقر والجهل إستطاع أن ينشىء جيشا حديثا وأسطولا قويا وأن يمدهما بكل ما يحتاجان إليه مما يصنع فى قلب البلاد ولولا ذلك لعجزت البلاد عن القيام بأعباء الكفاح الحربى الطويل الذى اضطر إليه محمد على فى مصر والحجاز والمورة وسوريا والأناضول .

أنشأ محمد على مدارس شتى للتعليم العسكرى وقسّمه الى درجات — ومدرسة للطب ومستشفى عسكريا ومدارس عدة للمشاة ومدرسة للفرسان ومدرسة للمدفعية ومدرسة للهندسة العسكرية الخ . (١)

ولما كان إنشاء جيش قوى يتطلب أن تكون فى البلاد كل حاجة من السلاح والذخيرة والمؤونة والأدوات والملبس وما الى ذلك . فقد أقام محمد على مصانع الذخيرة والأسلحة فى مصر — وبنى الحصون المختلفة على سواحل مصر لأغراض الدفاع .

أنشأ محمد على كل هذا حتى صارت البلاد كلها تعمل للجيش . ومما ينبغى إبرازه هنا أنه استطاع أن ينظم جيشا كبيرا وأسطولا ضخما وأن يقيم كل هذه المصانع والمعاهد المتعددة لتدريب الجيش وتخريج رجاله وتغذيته بحاجاته جميعا — وأن يستمر على ذلك زمنا طويلا . ويخوض حروبا شتى معتمدا على مرافق البلاد وقدرتها الاقتصادية دون سواها ومن غير أن يقترض قرشا واحدا من الخارج .

لم يكد محمد على يثبت دعائم ولايته الجديدة حتى وصلت إلى الاسكندرية حملة انجليزية بقيادة الجنرال " فريزر " ونزلت قوة أخرى فى رشيد بقيادة الجنرال « ويكوب » .

نزل جنود الحملة الأولى إلى المدينة بأمان — أما الثانية فما كادت تشتمل أحياء رشيد على جنودها حتى أصدر محافظها "على بك السلانكلى"

---

(١) كتاب الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير للبكباشى عبد الرحمن زكى .

أوامره إلى أهليها بالمقاومة والقتال — فسقط الكثيرون منهم قتلى ومن بينهم قائدهم . ولاذ الآخرون بالقهقرى إلى الاسكندرية بطريق أبى قير — وبلغت خسائرهم ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ جريحا وأسر المصريون منهم ١٢٠ أسيرا .

محمد على يوليه الشعب وزعماؤه حكم البلاد المصرية

أصاب هذا الظفر المصرى — الجيش الانجليزى فى كبريائه وأراد الجنرال " فريزر " الانتقام فعهد إلى الجنرال " ستوارت " قيادة حمله أخرى إلى رشيد — ودارت المناوشات بين الانجليز والمصريين الذين وصل

اليهم الامداد بقيادة " طبوز أوغلى " واستمر القتال عنيفا عدة أيام حتى أفضى الى انتصار المصريين فى معركة الحماد و بلغت خسائر الانجليز ٤١٦ قتيلا و ٤٠٠ أسير . وأسرعت قوات الجنرال ستوارت وكانت مرابطة فى جنوب رشيد بالانسحاب قبل أن يقضى عليها المصريون فوصلت إلى أبى قير ومن هناك استقلت السفن إلى الاسكندرية .

كانت معركة الحماد (٣٠ أبريل سنة ١٨٠٧) خاتمة هزائم الحملة الانجليزية وأسقطت هيبة القادمين . وخاصة لما جمع طبوز أوغلى بك أسراهم وشحنهم فى السفن إلى القاهرة ليشاهد الناس نتيجة انتصار رجال مصر — وبوصولهم سيقوا من بولاق إلى الأزبكية ومنها إلى القلعة وكان عددهم ٤٨٠ أسيرا .

وتوقع محمد على أن يمتنع الانجليز فى الإسكندرية بعد وصول الامداد إليهم فأخذ يعد العدة للزحف إلى الاسكندرية ليجلى الانجليز عنها . ولكن جاءه رسول من قبل الجنرال " فريزر " يحمل إليه رسالة المفاوضة فى الصلح وشرطها الأول جلاء الجيش الانجليزى عن مصر .

* * *

وجّه محمد على جل عنايته إلى الجيش الذى سيدعم عليه ملكه فى وادى النيل والذى ساعد به تركيا فى جميع محنها — وكانت محنتها الأولى فى بلاد العرب فأوفد أولا إبنه طوسون ثم ابراهيم على رأس الجيوش المصرية لاخضاع الثورة بها فانتصرت فى عدة معارك دامية نذكر منها بسل والدرعية — وفتحت المدينة ومكة والطائف . ودامت الحرب ثمانى سنوات انتهت بظفر ابراهيم ظفرا كاملا .

وكانت الحرب السودانية ثانية انتصارات الجيش المصرى فيما بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٢٢ وأهم معاركها كورتى وسنار و بارة .

ثم استنجدت تركيا بمصر فى الحرب اليونانية (١٨١١ — ١٨١٨) — وهذه الحرب و إن لم تكن قد أتت بنصر حاسم لتألب الدول الأوربية على تركيا ومصر لكنها كانت ميدانا لتدريب جيش مصر على الحرب الحديثة . ومن أهم معارك تلك الحرب الاستيلاء على جزيرة كريت وقبرص ومعركة نفارين البرية " وكالاماتا " و " تريبوليتز " و " مسيو لونجى " و " أثينا " .

ثم جاء دور الخلاف بين تركيا ومصر . ونشبت حروب الاستقلال ودام القتال عامين (١٨٣١ — ١٨٣٣) و بطل تلك الحروب القائد "ابراهيم باشا" ورئيس أركان حربه "سليمان باشا" ومن أشهر معارك حروب الاستقلال — الزراعة (١٤ أبريل ١٨٣٢) وعكاء ودمشق وحمص وحلب ثم معركة بيلان الكبرى (٣٠ يوليو ١٨٣٢) وقونية (٢١ ديسمبر ١٨٣٢) وتلتها معركة كوتاهية (٢ فبراير ١٨٣٣) وبعدها أصبحت جيوش محمد على على مسافة قصيرة من الآستانة .

وهنا تدخلت الدول الأوربية للتوفيق بين مصر وتركيا فاتفقتا فى معاهدة كوتاهية وبها أصبحت مصر وراثية فى ذرية محمد على على أن يحكم سوريا كلها والسودان .

وبمقتضى هذه المعاهدة بسط محمد على سلطانه على دولة كبرى اشتملت على مصر والسودان وبلاد العرب وفلسطين وسوريا وولاية أطنة و بلغت مساحتها أكثر من نصف أوربا وتزيد ١٥ مرة عن مساحة فرنسا .

وهدأت تركيا بعض الوقت لكنها بعد قليل بدأت تستعد للأخذ بالثأر وتساعد فى إشعال الدسائس والثورة بين أهالى سوريا فلم يجد محمد على أمامه إلا أن يعلن إستقلال البلاد أمام وكلاء الدول الأجنبية (مايو ١٨٣٨)

وفى أوائل ١٨٣٩ بدأت تركيا تتحدى رجال الحاميات المصرية فى شمال سوريا ثم احتلت بعض البلدان. وأخيرا إصطدم الجيشان فى (يونيو ١٨٣٩)

فى معركة (نزيب) الكبرى التى دارت فيها الدائرة على الجيش التركى ومُنى بهزيمة شنيعة وظفر ابراهيم باشا ظفرا حاسما على الأتراك .

ومرة أخرى تدخلت الدول الأوربية وهددت محمد على باعلان الحرب عليه إذا أصر على تقدم جيوشه وهدد الأسطول الانجليزى الموانئ السورية وميناء الاسكندرية .

وأمام تهديد الدول انسحبت الجيوش المصرية المنتصرة من الشام وعادت إلى وادى النيل بعد أن أدت واجبها .

وفى هذه الحروب أظهر جنود الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا صفات حربية باهرة — وعن هذه البطولة تحدث هذا القائد العظيم فقال " إنه من المستحيل على أى جندى فى العالم أن يقوموا بأعمال بطولة خارقة مثل جنودى ".

القائد إبراهيم باشا وأركان حربه سليمان باشا فى ساحة معركة نزيب

وهكذا انتهت حروب الإمبراطورية المصرية . ولولا تدخل الدول الأوربية لتغير وجه التاريخ ودارت الأحداث دورة أخرى .

وفى أيام محمد على أرسلت مصر إلى أوربا نخبة من الشبان المصريين الذين شادوا النهضة المصرية مع مؤسسها الأكبر : ومن هؤلاء محمد مظهر وحماد عبد العاطى وعلى مبارك ومحمد شريف وعلى ابراهيم وغيرهم كثيرون من الأطباء والمهندسين ورجال القانون والعسكريين .....

عباس الأول وسعيد

وفى عهد عباس الأول أرسلت مصر حملة لنجدة تركيا فى حربها ضد روسيا وكانت القوات البحرية بقيادة أمير البحر "حسن الاسكندرانى باشا" والحملة البرية بقيادة الفريق "سليم فتحى باشا" وقد أدى الجنود المصريون واجبهم بكل إخلاص للدولة الشقيقة — وكانت أهم المعارك التى خاضتها — معركة سلسترة والدفاع عن طابية العرب ضد غارات الروس المتتابعة .

وقد درج عباس باشا على سنة أبيه بارسال البعثات العسكرية إلى معاهد أوربا ولكنه فضل المعاهد النمسوية والبروسيه عن الفرنسية والإنجليزية . وممن أوفدهم : إسماعيل كامل وحامد أمين وعبد القادر حلمى وعثمان غالب وعبد الله شكرى ومحمد راسخ ومحمد نصحى ويوسف شهدى ومصطفى نايل وغيرهم .

وفى عهد سعيد باشا أرسلت نجدة أخرى (١٨٥٥) ضد الروس انتهت بانتصار القوات التركية المصرية ثم عقد الصلح بين الطرفين .

وفى أيام حكم سعيد اشتركت إحدى الكتائب السودانية فى طائفة من المعارك فى المكسيك لما استنجد نابليون الثالث — إمبراطور فرنسا — بعاهل مصر — وهكذا دون جنود مصر بطولتهم فى رمال تلك البلاد النائية فى العالم الجديد .

وقد أوفد سعيد باشا البعثات العسكرية من الشبان المصريين ومنهم : ابراهيم رأفت وأحمد راشد حسنى وعثمان رأفت ومحمد راتب ومصطفى فايد ويوسف النبراوى وسواهم .

ويمتاز عصر سعيد بظهور نهضة وطنية جديرة بأن تعد دورا هاما من أدوار الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث .

وترجع هذه النهضة إلى ميول سعيد باشا ذاته . فقد كان ذا نزعة وطنية نشأت فيه قبل أن يتولى الحكم . ولا زمته بعد أن تولاه . وظهرت آثارها فى كثير من إصلاحاته وأعماله وقد كان يميل بجوارحه إلى خير المصريين ويبث فيهم روح الوطنية ويشجعهم على تقلد المناصب العالية فى الجيش والادارة . بعد أن كانت من قبل وقفا على الترك والشراكسة[1] .

وكان سعيد باشا ميالا إلى الجيش وإلى ترقية الضباط المصريين . وقد نقل عنه أحمد عرابى باشا خطبه ألقاها فى مأدبة فى ثكنة قصر النيل تدل على عواطف وطنية شريفة — وقال مخاطبا الحاضرين من العلماء والرؤساء وكبار رجال الحكومة الملكيين والعسكريين .

« ... وحيث أنى اعتبر نفسى مصريا . فوجب علىّ أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا . حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة . ويستغنى بنفسه عن الأجانب . وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى الفكرى الى العمل » .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى بك — عصر اسماعيل — الجزء الأول — ص ٢٣

موقف رائع لجنود المصريين فى معركة أرباتوريا فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٥٥

اسماعيل باشا

ثم أقبل على حكم مصر المغفور له اسماعيل باشا — فنهض بالبلاد نهضة كاملة اشتملت على الجيش والتعليم والصناعة والتجارة والزراعة والصحة العامة فارتقت أحوال البلاد فى جميع النواحى . أليس اسماعيل الذى أنشأ المئات من دور العلم والمشافى — ومدّ خطوط السكك الحديدية والطرق — وشقّ الترع وأقام القناطر والسدود وأصلح الموانىء والمنائر — ألم يكن اسماعيل العظيم الذى بعث رجال العلم والريادة لكشف منابع النيل ومجاهل القارة الأفريقية وأسس دولة نيلية كبرى !!

وجّه اسماعيل عنايته الى جيش البلاد فرفع مستواه العلمى وزاد عدده وزوده بمختلف الأسلحة الحديثة وأنشأ له المدارس الكبيرة وأقام المصانع وأوفد البعوث من رجاله للمعاهد الأوربية — وكوّن له هيئة من ضباط (أركان الحرب) تضارع هيئة أى دولة كبرى .

عنى اسماعيل باشا بتعليم الجيش . ضباطا وجنودا . فنى عهده أعيد تنظم المعاهد العسكرية لكبار الضباط واصغارهم واضباط الصف والجنود . وهكذا نراه يشيّد عظمة مصر على دعائم العلم والتربية والقوة .

وفى أيامه استنجدت به الدولة العثمانية فى اخماد ثورة العسير واليمن (١٨٦٣ — ١٨٦٦ م) وفى حرب الجبل الأسود (١٨٦٢) — وفى حرب كريت (١٨٦١ — ١٨٦٥) وفى هذه الحرب أثبت الجندى المصرى أنه محارب من الطراز الاول — وأنه حقا حفيد هؤلاء المقاتلين الأشداء بناة الإمبراطوريات .

وفى طليعة حملات الجيش المصرى — فتح دارفور والتوسع فى السودان الشرقى — فأخضعت زيلع وهرر ومصوع . كما أتم الخديو اسماعيل توسيع

أملاكه السودانية من الجنوب . وأعلن رسميا بأن البلاد التى حول (غندوكرو) أصبحت فى حوزة مصر . وسمى المدينة المذكورة (الاسماعيلية) وعين الكولونيل (جوردون) حاكما لمديرية خط الاستواء (١٨٧٤) وعمل على مد نفوذ مصر حوالى بحيرة فكتوريا نيتزا ثم أرسل حملة إلى بلاد الصومال الجنوبية لادخال المناطق الواقعة على نهر جوبا فى قبضة مصر .

ولقد نجحت السياسة المصرية التى رسمها اسماعيل العظيم لتوسيع رقعة دولته نحو الجنوب إلى أقاليم خط الاستواء .

ومن حروب مصر — حرب الحبشة (١٨٧٥ — ١٨٧٦) ثم اشتراكها فى حرب الصرب (١٨٧٦) وفى الحرب الروسية التركية (١٨٧٧) .

لقد كان عهد اسماعيل من أعظم العهود العسكرية التى عرفها الجيش المصرى . وتاريخ الجيش الاسماعيلى من أنصع صفحات الجيش .

الجيش الظافر :

رأينا محمد على يضع الحجر الأساسى فى وحدة وادى النيل بعد أيام الفراعنة فقد كان من نتائج فتح السودان فى عهده توحيد القطر الجنوبى بعد أن كان إمارات وقبائل غير متماسكة . وعقب هذا الفتح المظفر أيضا اكتشاف منابع النيل وانتشار العلم وامتداد العمران بل وازدهار الحضارة هناك .

ولما تولى اسماعيل حكم مصر تابع سياسة جده فى وادى النيل الجنوبى . فقضى على النخاسة واكتشفت مجاهل الصحارى السودانية وفتحت البحيرات الاستوائية للملاحة وأخضعت البلاد الواقعة جنوبى « غندوكرو » . ورفع عليها العلم المصرى يوم ٢٦ مايو عام ١٨٧١ ثم ضمت مديرية خط الاستواء ونصب عليها حاكما من قبل مصر . وضمت أوغنده أيضا وعقدت مع ملكها معاهدة صداقة . وكان اسماعيل يحدد لقائد الحملة المصرية الأهداف التى ينبغى تحقيقها فكتب اليه يقول « لا تواصل الزحف إلى الأمام بل استعمر البلاد وعمم السكان واجعل القبائل موالية لك »

وفى أيام اسماعيل استقرت السيادة المصرية على جميع شاطى البحر الأحمر الغربى إلى ميناء بربرة (فى الصومال البريطانى اليوم) .

وبعد أن حصل على تنازل تركيا لمصر عن ميناءى سواكن ومصوع (فى أريتريا اليوم) بمقتضى فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ . عين اللواء « ممتاز باشا » والياً على جميع ساحل أفريقيا من السويس إلى رأس جردفوى (الصومال الايطالى) — فرفع العلم المصرى على (بلهار) فى ١٦ يناير عام ١٨٨١ ثم حصل على تنازل تركيا عن زيلع لمصر فى يونيو عام ١٨٧٥ . وقد اعترفت انجلترا بحق مصر فى هذه المناطق . فعقدت معاهدة فى ٧ سبتمبر ١٨٧٧

تمثال البطل إبراهيم فى القاهرة

وقعها قنصل انجلترا العام فى مصر عن الجانب الانجليزى ومحمد شريف باشا عن الجانب المصرى — وتقرر فيها أن جميع ساحل أفريقيا الشرقى لغاية رأس جردفوى تملكه مصر [1]

وقد أجمع المؤرخون على أن ضم زيلع وبلهار وبربرة وساحل أفريقية الشرقى حتى رأس جردوفوى إلى الدولة المصرية قد أثمر نتائج رائعة لم يحققها أى احتلال أوربى آخر فى أفريقيا .

وقد حرص رجال القسم الجغرافى من ضباط هيئة أركان حرب الجيش المصرى على تسجيل هذه الممتلكات المصرية فى خارطة عرضت فى المعرض الجغرافى الدولى الذى عقد فى البندقية عام ١٨٨١ .

ولكن السياسة العدائية الموجهة ضد مصر فى أخريات القرن التاسع عشر كانت لا تريد لها هذا التفوق الأفريقى . فانتهزت فرص الحوادث عقب عام ١٨٨٢ وبدأت تنفذ سياسة البتر وأبعدت بالتدريج السيادة المصرية عن الأقاليم الاستوائية وشرقى أفريقيا ومعظم أنحاء السودان .

وقد نهض اسماعيل بالتعليم . فانشئت مدارس الحقوق ودار العلوم والمدارس الثانوية ومعاهد البنات . وكان التعليم فى معظم المدارس مجانيا وبلغت ميزانيته فى عهده حوالى ٧٥٠٠٠ جنيه . وفى أيامه أنشئت مئات من منشآت الرى والزراعة والصناعة . ومدت خطوط السكك الحديدية والبرق (التلغراف) . ونظم البريد — وتقدمت الشؤون الصحية وازدهرت المدن بالمبانى الحديثة . وظهرت الحركة الوطنية — ودعمت الحياة النيابية — وتطورت الحياة الاجتماعية .

ولولا تدخل الدول الأوربية فى شئون مصر لما تسرب نفوذها إلى أعمال الحكومة . ولما انتهى الحال إلى حوادث عام ١٨٨٢ . ولما تصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى الذى وضع دعامته محمد على العظيم .

---

(١) فيليب جلاد — قاموس الادارة والقضاء — جزء ٢ صفحة ٤٩٠

الظفر المصرى فى السودان :

وما كادت الحركة العرابية تغلب على أمرها حتى تفجرت مراجل الثورة فى السودان بزعامة المهدى ونجح كل النجاح وأقام امبراطوريته السودانية — ثم لعبت السياسة دورها — فسحبت القوات المصرية من شطر وادى النيل الجنوبى بالرغم من معارضة الوزير الوطنى محمد شريف باشا الذى قدم استقالته.

ومنذ تم هذا الانسحاب بدأت سلسلة متواصلة الحلقات من المعارك فى أنحاء السودان كان النصر فيها متبادلا بين المصريين والسودانيين إلى أن قرر نهائيا استعادة السودان عام ١٨٩٦ وسنذكر أهم معارك الجيش الظافر فى تلك الحملة .

الاستيلاء على عكاشة	فى	٢٠	مارس	١٨٩٦
معركة فيركة	فى	٧	يونيو	١٨٩٦
« الحفير	فى	١٩	سبتمبر	١٨٩٦
« أبو حمد	فى	٦	سبتمبر	١٨٩٧
« دنقلة	فى	٣٠	سبتمبر	١٨٩٧
« العطبرة	فى	٧	أبريل	١٨٩٨
« أم درمان	فى	٢	سبتمبر	١٨٩٨
« القضارف	فى	١٨	سبتمبر	١٨٩٨
« جديد (أم دبريكات)	فى	٢٤	نوفمبر	١٨٩٩

هذه أهم معارك حملة إعادة فتح السودان فعاد الأمن إلى تلك البلاد الجميلة واتحد شطراها .

ومع ذلك فقد جنحت بعض القبائل إلى الثورة بدوافع شتى فكانت تمحدها وحدات الجيش المصرية والسودانية ومن تلك المعارك :

معارك النيل الأزرق بما فيها كسلا وسنار والجزيرة وداوريات بحر الغزال — معارك جيروك — معركة نيام نيام — حملة تلودى — معركة الكتفية — معركة علياب بمنجلا — معركة أجاكير — معركة الطيرالأخضر — معركة مندل والصبابى وهكذا . .

فما الذى يمكن أن يقال بعد ذلك عن كفاءة الجندى المصرى وبطولته فى ميادين القتال ؟ فلم يكن فتح السودان حملة قصيرة العمر — بل كان سلسلة من المعارك الدموية ضد مقاتلين من الأبطال — معارك دارت فى بقاع شتى من السودان — فى الصحراء وفى الجبال وفى السهول وفى الغابات وعلى ضفاف النيل — ولولا الجندى المصرى وطبيعته لما كتب التاريخ فى صفحاته التى نقرأها اليوم — فهو جندى قوى العضل باسل صبور على المكاره يتحمل أشد المتاعب — وليس هذا بعجيب لأنه نشأ فى أمة من المكافحين الأشداء .

الحرب العالمية الأولى

ولما نشبت الحرب العالمية الاولى امتحنت من جديد روح الجيش المصرى فاشتركت المدفعية المصرية مع القوات البريطانية فى رد هجوم الأعداء عن قناة السويس . واستشهد بعض أفرادها دفاعا عن وطنهم . وعاونت بعض وحدات الجيش المشاة (الكتيبة الثانية المشاة) فى رد غارات الأتراك فى أنحاء سيناء الجنوبية فى العمليات الحربية التى نشبت فى عام ١٩١٥ .

وأنقذت حاميتها المصرية مدينة الطور

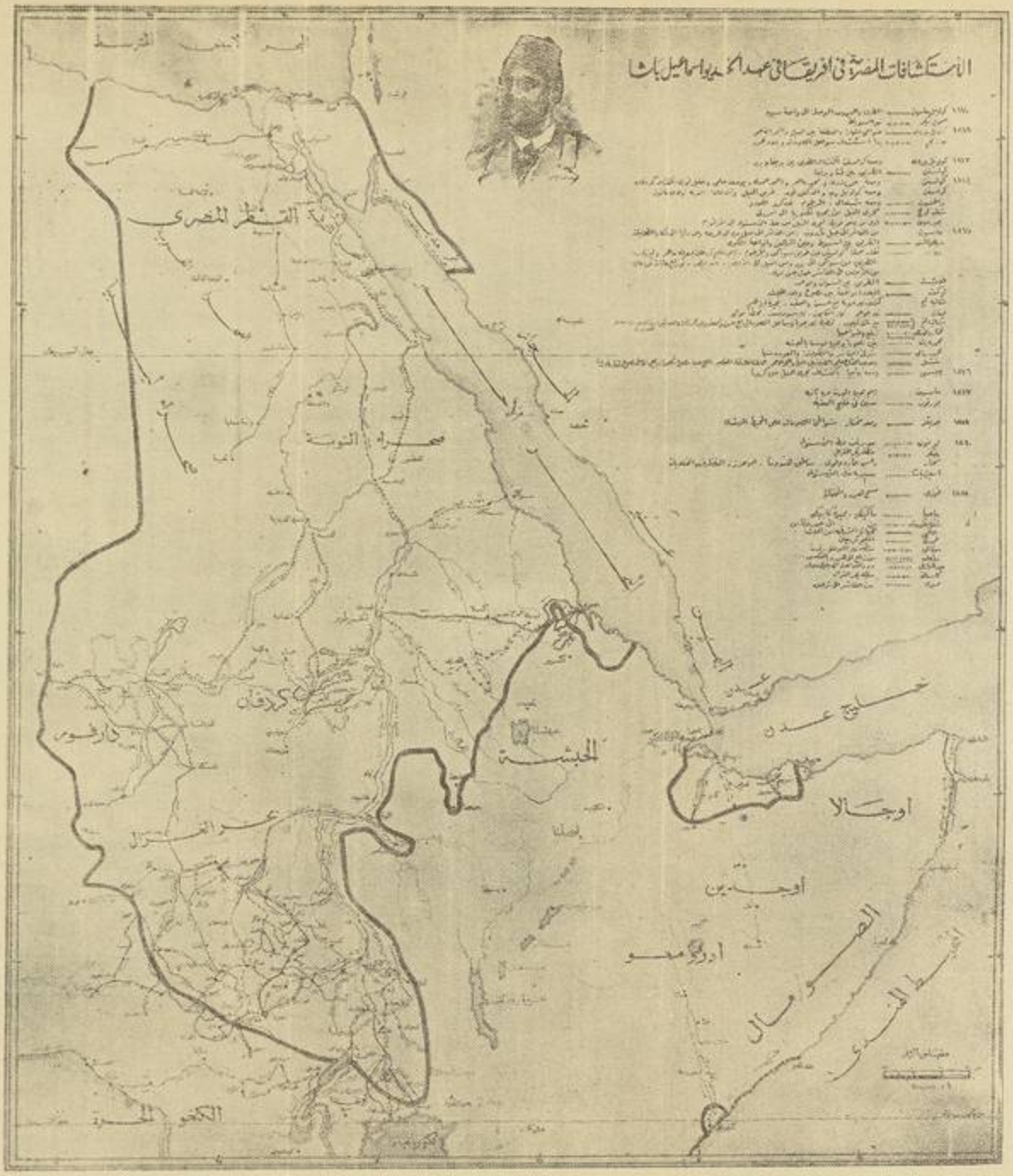
الاستكشافات المصرية في افريقيا في عهد الخديو اسماعيل باشا
القطر المصري
الصحراء النوبية
كردفان
دارفور
الحبشة
عصاب عدن
اوجالا
اوجادين
الصومال
الكنغو الحرة

وفى الصحراء الغربية اشترك جنود الأشغال العسكرية فى الأعمال الفنية الخاصة بالمياه والاستحكامات وقصدت وحدات أخرى من هذا السلاح إلى ميدان الدردنيل .

واشتركت الكتيبة السادسة فى حملة استقلال الحجاز (سبتمبر عام ١٩١٦) مع وحدات من المدفعية المصرية — فأدى الجنود واجبهم ببسالة تحدثت عنها التقارير الرسمية التى كتبت عن الحملة بالتقدير والثناء — وقام الجيش بأعمال تكللت بالنجاح فى عمليات دارفور التى انتهت بهزيمة السلطان على دينار .

فارس مصرى يعلن الظفر على الملا*

الملك فؤاد الأوّل

ولم تكن حوادث عام ١٨٨٢ لتثبط همة مصر وعزيمتها . فقد جاهدت وناضلت وارتفعت أصوات أبنائها البررة ليخلصوها مما ألمّ بها . وكانت جهود مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وسعد زغلول قد أثمرت وأيقظت روح الشعب التى لم تخمل إلا فترة قصيرة — اننا نكون قد ابتعدنا عن المبادئ الطبيعية والتاريخية إذا غالينا فى استغلال المسائل الوطنية . وقلنا إن الظفر كان دائما من نصيبنا . فما من أمة إلا وقد مرت عليها ظروف متقلبة من نصر مجيد إلى هزيمة مرة والى تعادل . لكننا كما نفيد من دروس تلك الهزائم لنتغلب بها على الصعاب فى أدوار حياتنا .

وقد نهضت مصر نهضة سياسية اجتماعية شاملة . ففى أيام حكم فؤاد ظفرت بتحقيق بعض غاياتها الوطنية . وتقدمت أحوال البلاد الاقتصادية وأنشئت مئات المدارس وجامعة فؤاد الأول . وازدهرت المدن بالمشروعات العمرانية وكثرت الجمعيات العلمية وأصبح لمصر مجلس نيابى وممثلون سياسيون فى دول العالم وخطت مصر خطوات واسعة لتتبوأ مكانتها فى طليعة أمم العالم .

ويمتاز عصر فؤاد الأول بنهضة علمية واسعة النطاق . ففى عهده أسس مجمع اللغة العربية الملكى ونهض التعليم الحر والزراعى والأولى وكثرت المدارس الثانوية والعالية لتعليم البنات وأرسلت البعثات العلمية والفنية الى الجامعات الأوربية والأمريكية وكسب العلماء والمؤلفون والناشرون رعاية الملك وتشجيعه . وتقدمت الفنون الجميلة وتطورت الموسيقى وأنشئت لها المعاهد وعقد لها أول مؤتمر للنهوض بالموسيقى الشرقية . وازداد عدد المتاحف الفنية والتاريخية وأخرجت دار الطباعة الحكومية عددا وفيرا من الكتب العلمية والمطبوعات الفنية . وزاد عدد المستشفيات فى البلاد .

وفى أيام الملك فؤاد تطور التعليم فى الأزهر . ونظمت الجامعة الأزهرية وأسست مدينة للازهريين . ونالت الجماعات الخيرية الكثير من فيض كرمه .

وفى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول أدخلت على الجيش الأساليب الحديثة من التدريب — فارتقى مستوى التعليم العسكرى وأرسلت البعثات الحربية الى الخارج لتتلقى المستحدث من علوم الحرب — وشيّدت المنشآت الحديثة وزودت بجميع وسائل الرفاهية — وتقدمت الألعاب الرياضية فى الجيش .

وفى أيام الملك فؤاد أيضا أنشئ مجلس الجيش للاشراف على أحوال وزارة الحربية والبحرية . وكان يعقد جلساته برئاسة وزيرها وعضوية الوكيل . ومفتش الجيش والمدير العامل لكل من مصلحة الحدود وخفر السواحل وأحد ضباط الجيش المتقاعدين برتبة اللواء .

وفى أواخر عام ١٩٣١ تألفت نواة لسلاح الطيران الحربى واحتفل بوصول السرب الأول فى مطار ألمظه الحربى احتفالا عسكريا رائعا كان على رأسه المغفور له الملك فؤاد الأول

فاروق المعظم

جاهدت مصر عشرات السنين حتى فازت ببعض أمانيها. وهى لا تقف اليوم قانعة. بل هى دائبة على استكمال البقية لتتبوأ مكانتها اللائقة بها بين دول العالم وأبناء وادى النيل لا يهدفون الا للمثل العليا.

وفى الحرب العالمية الثانية اشتركت مصر فى غمارها بصفة شبه رسمية. فقد كانت دولة غير محاربة ولكن ساهم جيشها بجهود لا تقل عن جهود أمم كبيرة. ساهم جيشها الفتى على حداثة عهده بالتسليح الحديث وتنظيمه الجديد الذى بدىء به عام ١٩٣٨ فى الدفاع عن الوطن المصرى. برا وبحرا وجوا.

بيد أن أبناء سمالوط ونجع حمادى وقويسنا وأسيوط والقاهرة واسكندرية قوم متواضعون أدوا جميعا واجبهم فى صمت وهدوء. ودافعوا عن الصحراء الغربية والموانىء المصرية والسكك الحديدية وقناطر النيل وقناة السويس.

فقد اشتركت أسراب سلاح الطيران الملكى المصرى فى وقاية الأجواء المصرية فوق سيناء والدلتا والصعيد بل وتجاوزتها الى القارة الأوربية والأسيوية وأواسط أفريقية؟ ودافعت النسور المصرية عن القاهرة والبحر الأحمر. وحمت قوافل الحلفاء فى البحر المتوسط واستكشفت غواصات الأعداء ...

ودافعت الوحدات المصرية من مختلف الأسلحة عن مرسى مطروح والضبعة ومواقع الحدود. وقد تحملت كتيبة مصرية فى السلوم الصدمة

الأولى من الأعداء إلى أن اضطرت الى الانسحاب الى سيدى برانى وسيوه بعد تكبدها خسائر فى الأرواح والعتاد .

كما دافعت آلايات الخيالة الميكانيكية عن مواقع كثيرة فى الصحراء الغربية والسواحل المصرية ومراقبة قوات الأعداء فى كل مكان .

وحمت قوات مصر خطوط المواصلات والقناطر والخزانات ومرافق البلاد فى المدن الكبيرة والثغور والمطارات إلى وادى حلفا .

ولا أدرى إذا كنتم تعرفون أن الدفاع الجوى عن القطر المصرى بأجمعه قام على أكتاف الجندى المصرى . فكانت وحدات الأنوار الكاشفة والمضادة للطائرات هى التى قامت وحدها — نعم وحدها فقط . . . برد طائرات الأعداء عن سماء مصر . والجنود المصريون هم الذين دافعوا وحدهم عن قناة السويس طيلة مدة الحرب — هذا الشريان الذى يقال عنه دائما إنه أهم طرق المواصلات البحرية فى العالمين القديم والحديث .

ونهض رجال سلاح المهندسين الملكيين بازالة القنابل التى ألقتها طائرات العدو . وبرفع الألغام ، بل وأقاموا التحصينات والاستحكامات البرية ومدوا أنابيب المياه . أضف الى ذلك أنهم أنشأوا كثيرا من خطوط السكك الحديدية عبر الصحراء .

هذا قليل من جهود كبيرة اضطلعت بها أسلحة الجيش المصرى . وبهذه الجهود تتبوأ مصر مكانها الذى تستحقه بجدارة وبحق بين شعوب العالم . ولقد كان يوم ٩ أغسطس سنة ١٩٤٦ يوما مجيدا . وسيظل يوما خالدا فى تاريخ مصر الحديثة . فى عهد الملك فاروق المعظم . لما رفع جلالته علم مصر على قلعة مصر بعد غيابه عنها مدة .

فى ذلك اليوم اتجه المليك نحو الواقفين حوله وقال :

"لقد رفعت علم مصر فوق قلعة مصر ولندعُ الله أن لاينزل منها أبدا"

الخلاصـــة

*رأينا فى الصفحات السابقة كيف مرت بمصر عصور زاهية تمتعت خلالها بنعيم الحرية والاستقلال . ورأينا كيف قاسى المصريون من غدر المحتلين وحقدهم وغيرتهم — من الهكسوس والاشوريين والفرس واليونان والرومان والعثمانيين وسواهم ومع ذلك خلدت مصر بالرغم عن المحن والأهوال التى لاتكاد تتصور.. ولم تتهكسس مصر أو تتأشور أو تتأغرق . . و ينبغى أن لانسى أنه فى كثير من حقبات الاحتلال كان سلطان المحتلين لايتغلغل فى صميم وادى النيل ولم يجاوز شواطئ البحر الأبيض المتوسط .

وسبب ذلك هو احتفاظ أبناء وادى النيل بذاتيتهم وخصائصهم ومناعتهم ضد الفناء وعدم قبول الذوبان والتلاشى فى غيرهم من أقوام الفاتحين . ولهذا مرت بمصر خطوب لو حدثت لغيرها من الأمم لذابت وانقرضت كما انتهت فينقيا وآشور وورومة — ولكنها نجت وخلدت واستعصت على الفناء .

هذا فى تاريخ مصر القديم — أما فى تاريخها الحديث — فقد رأيناها تنجو من الاحتلال الفرنسى العقيم بقوة روح شعبها وعادت جيوش نابليون من حيث أتت تجر أذيال الخيبة والفشل .

وفى أيام محمد على العظيم قاومت مصر كل الدول الأوربية التى وقفت لظفرها بالمرصاد وهددتها بالقوة . بل هاجمت حصونها لكى لا تتنفس الصعداء .

كانت الدول العظمى فى العصرين القديم والحديث تتفادى مواجهة جيوش مصر قبل أن تجند عليها الدسائس والخيانات كما فعل الفرس والاغريق والرومان والعثمانيون والفرنسيون والانجليز.. كل هؤلاء تغلبوا على مصر عن طريق الخيانة والدسائس — فعل هذا جميع الغزاة كما فعل السلطان سليم مع الأمير خير بك نائب حلب . ومن أجل هذا رأينا الدول

تفزع من فتوح محمد على فتسرع بعقد المؤتمرات وتغتال أسطول مصر غدرا بغير قتال فى معركة نفارين — وفى معاهدة لندن وغيرها . فتحرم مصر من ثمار انتصاراتها .

والتاريخ يعيد نفسه فى أيام اسماعيل العظيم — فبمجرد تأسيسه الدولة المصرية أو النيابية وشق قناة السويس تتدخل انجلترا والدول الكبرى بحجج واهية ثم توغر صدر السلطان ضده فيعزله ثم تتآمر الدول فيما بينها بالكيد والنيل من سمعته بكل الأساليب الى أن تفضى الحوادث باحتلال عام ١٨٨٢

ولكن المصريين قوم نزاعون الى النضال اذا ساءت الحال واشتد البلاء. مع أنهم ليسوا بأمة ثورة ورعونة تخصصت للحرب والقتال كاسبرطة أو بروسيا .

ولم تكد تنتهى الحرب العالمية الأولى حتى هب المصريون هبة واحدة فى وجه انجلترا . وهذا الماريشال ويفل يصف كيف قامت هذه الثورة فيقول :

"إن الرخاء السائد إذاك كان يجب أن يكون من أسباب السكينة لا من أسباب الثورة . وهناك حقيقتان :

الأولى أن الحرية والاستقلال ليسا غريبين عن مصر . والثانية أن المظاهر فى مصر كثيرا ما تخدع الناظر والباحث . فهناك دائما أشياء أخرى فى الأعماق غير تلك التى تطفو على السطح" .

ويظاهر عبارة الماريشال ويفل من وجه ما قول عالم بالآثار : إن مصر فى تاريخها الطويل إما أمة محتلة ترسف فى أغلال الفاتحين وترنو الى الحرية والاستقلال . وإما امبراطورية تتطلع الى الفتح والغلب وتسوق جيوشها ذات اليمين وذات الشمال . ولا وسط فى تاريخها بين هذين .

وقد ابتليت مصر منذ القدم بالغيرة والعداوة والافتراء . فكانت اليونان ترسل علماءها ورحالتها ليقفوا بأنفسهم على حضارة مصر وعلومها لينقلوها الى بلادهم . وكانت رومه بالنسبة الى مصر أغير من النساء اذ كانت تعلم أنها لن تثبت لها دولة مادامت مصر ذات أسطول وجيش . وفى صنايع جميع الدول التى احتلت مصر شواهد على صدق هذه الحقيقة [1] .

* خلدت مصر لأن معنويتها قوية جدا . وهذه الصفة تبدو فى الشعوب كما تبدو فى الأفراد سواء بسواء . وأقرب مثل لها الطليان واليونان فى الحرب العالمية الثانية . فقد امتلأ تاريخ اليونان بالبطولة فيها . كما حلا تاريخ إيطاليا من كل فخر فيها . وينبغى مراعاة الفرق بين الأمتين فى العدد والموارد من كل وجه الا من وجه واحد هو هذه الفضيلة أو السجية . وهما مع ذلك أمتان قديمتان ولكل منهما مدنية وحضارة مشهورتان .

وتتجلى هذه الفضيلة فى أروع مظاهرها ومصر مغلوبة معذبة . وقف دارا ملك الفرس فى معبد بتاح بجوار تمثال رمسيس الثانى يقترح على كهنة مصر أن يقيموا تمثاله الى جانبه . فجابهه كاهن منهم بصراحة معتزا عليه رمسيس اذ قال :

" انك لم تفتح فتوح ذلك الفرعون العظيم ولم تبل مثل بلائه " .

فتلقى دارا اللطمة بحلم عظيم وأجاب : " سأفعل كما فعل اذا عشت كما عاش " .

وهذه المعنوية من وحى الفطرة ، كما أملتها غريزة حب البقاء والمحافظة على النوع . وهى إيمان بالنفس و بالعنصر .

أليس من العجب أن تنجو مصر من نظام الحكم الرومانى وقد دام حوالى ستمائة عام . أليس من العجب أن يبيد أعداؤها وأن تسلم هى من الفناء .

---

(١) من مقال للأستاذ عبد اللطيف قاسم فى مجلة الاصلاح الاجتماعى .

وأن يشهد التاريخ أنها كانت أقوى وأثبت جذورا فى الأرض من قاهريها؟ هؤلاء القاهرون الذين افتنوا فى إذلالها وسحقها انتقاما منها من جهة. ولقتل روحها من جهة أخرى. لقد كان المصريون اذ اشتد البلاء بهم اعتصموا بالمصابرة ونزعوا الى النوازع الصوفية وقاية لأنفسهم من الفناء.

وقبل أن نختم هذا الكتيب نأتى بكلمة للمؤرخ الكبير شارل سينيوبوس فى كتاب حديث له صدر بعد الحرب الأخيرة [1] ننقلها إلى لغتنا وهى :

« إن فرنسا لم تكن فى يوم من الأيام بلدا يمكن أن يجمع فيه بسهولة جيش من المتطوعين. وقد كان المحاربون فى فرنسا دائما من أصل أجنبى. و إلى عهد الثورة الفرنسية كان جزء من جيوشها مكونا من الأجانب (كالألمان والسويسريين والهولنديين والأسبان)».

ذكرنا هذا لأن بعض المؤرخين الذين يتلمسون مواطن الضعف فى تاريخ مصر يقولون إن معظم الجيوش التى انتصرت فى تاريخها الطويل لم تكن مصرية إلا بالاسم. بل كانت من العرب والأكراد والمغاربة والسودان وغيرهم من العناصر الأجنبية والجنود المرتزقة.

والرد على هؤلاء المتعصبين ليس عسيرا فى شىء. فقد كانت جيوش مصر الظافرة مصرية بحتة حتى نهاية العصر الفرعونى. وأما فى العصر الإسلامى فقد كانت طبيعة الدولة الإسلامية كلها تقضى بأن يتضافر أبناء ديار الاسلام فى الدفاع عنها. كما يشترك اليوم أهل كندا واستراليا ونيوزلندة وجنوب أفريقيا مع أبناء الجزر البريطانية فى الدفاع عن كيان الامبراطورية. فمصر كانت فى العصور الوسطى من أهم دعائم الامبراطورية الاسلامية.

---

(١) تاريخ الأمة الفرنسية طبعة عام ١٩٤٥ . ص ٣٣٤ — ٣٣٥

وكان طبيعيا أن يشترك فى الدفاع عنها جنود المسلمين من جميع الأجناس تحت لواء أمرائها وحكوماتها المختلفة فقد كانت مصر فى ذلك الوقت قلب العالم الإسلامى النابض — مثلها بالنسبة اليه — مثل الجزائر البريطانية بالنسبة إلى الإمبراطورية البريطانية فى العصر الحديث .

لقد ظفرت مصر وخلدت على مر الدهور لأن أبناءها أرادوا ذلك فمعنويتهم عميقة فى نفوسهم . ولو كانت قوتها أضعف من هذا لتلاشت وفنيت . شأنها فى ذلك شأن الدول الكبرى التى بادت و ستبيد. فعلينا أن نرجع الى ماضينا ونذكره لأن الماضى مصدر للالهام لا للباهاة . لنتمكن من الكفاح والنضال فى جميع أدوار حياتنا .

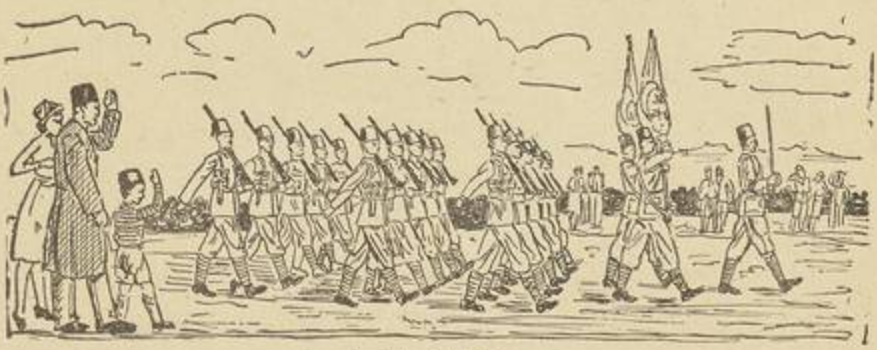

سرية فى الجيش الحديث

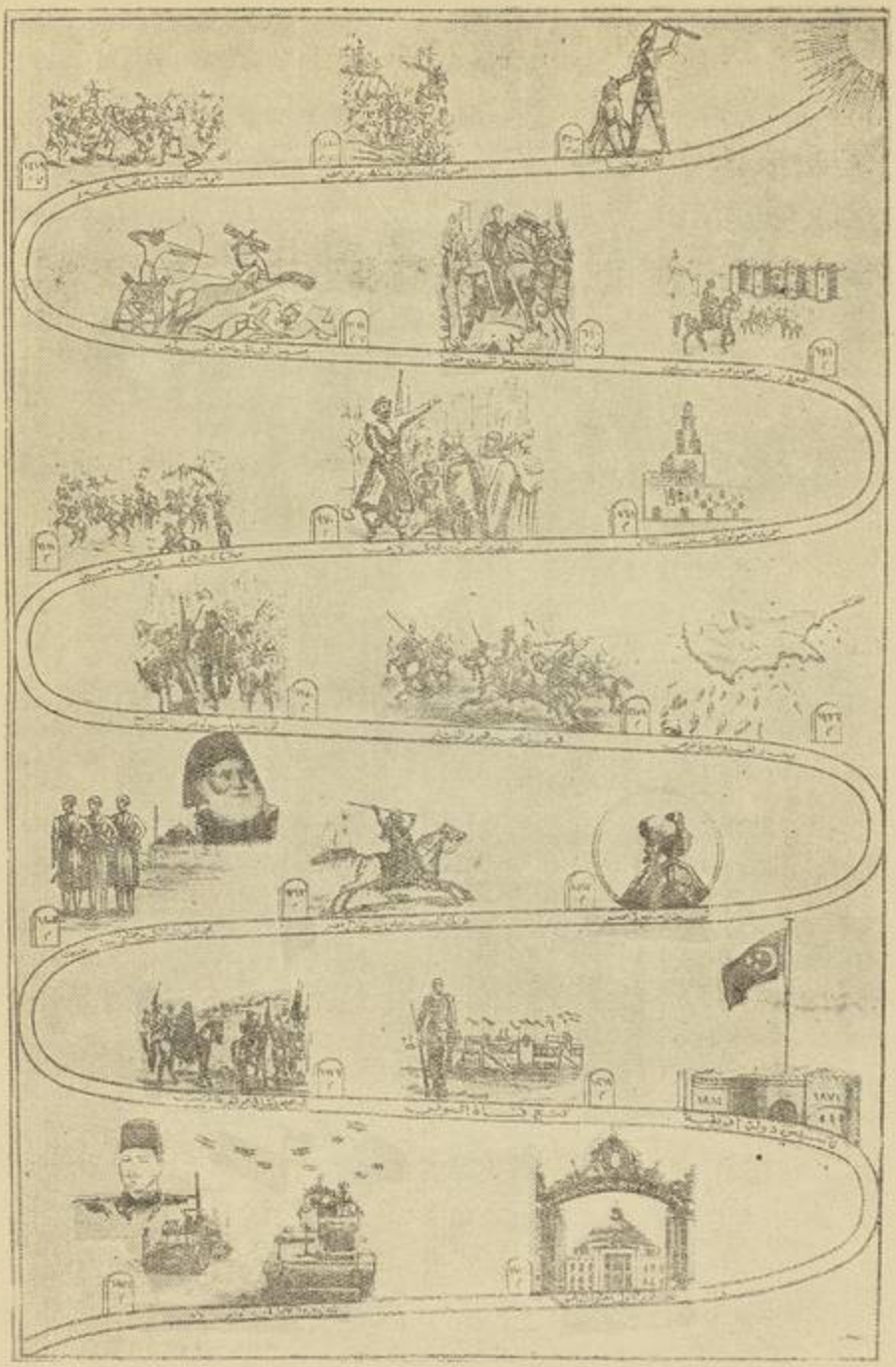

أهم أحداث مصر في تاريخها القديم والحديث

١ — ثبت بتواريخ أهم الاحداث فى تاريخ مصر القديمة

أحداث مصر القديمة	السنة
إمارات ما قبل التاريخ المصرى	٤٥٠٠ ق.م
ازدهار ممالك الوجهين القبلى والبحرى	٤٠٠٠ ق.م
توحيد الدولة المصرية (الملك مينا) وبداية حكم الأسرات	٣٤٠٠ ق.م
الأسرتان الأولى والثانية تحكمان فى تنيس ...	٣٤٠٠ — ٢٩٨٠ ق.م
المملكة القديمة	٢٩٨٠ — ٢٤٧٥ ق.م
الأسرة الثالثة تحكم فى منف	٢٩٨٠ — ٢٩٠٠ ق.م
الأسرة الرابعة « «	٢٩٠٠ — ٢٧٥٠ ق.م
الأسرة الخامسة « «	٢٧٥٠ — ٢٦٢٥ ق.م
الأسرة السادسة « «	٢٦٢٥ — ٢٤٧٥ ق.م
وفى عهدها أرسلت أقدم الحملات الحربية الى فلسطين. وفى عهدها تمت السيطرة على بلاد النوبة الشمالية	—
الأسرتان السابعة والثامنة تحكمان فى منف ...	٢٤٧٥ — ٢٤٤٥ ق.م
الأسرتان التاسعة والعاشرة تحكمان فى هيراكليوبوليس	٢٤٤٥ — ٢١٦٠ ق.م
المملكة الوسطى	٢١٦٠ — ١٧٨٨ ق.م
الأسرة الحادية عشرة تحكم فى طيبة	٢١٦٠ — ٢٠٠٠ ق.م
الأسرة الثانية عشرة « «	٢٠٠٠ — ١٧٨٨ ق.م
الأسرة الثالثة عشرة الى الأسرة السابعة عشرة يشتمل حكم هذه الأسرات على فتن واضطرابات داخلية — غارة الهكسوس وبقاؤهم حوالى ١٥٠ سنة	١٧٨٨ — ١٥٨٠ ق.م

أحداث مصر القديمة	السنة
عصر الامبراطورية الأولى - طيبة	١٥٨٠ — ١٣٥٠ ق.م
الأسرة الثانية عشرة — مركة مجدو	١٥٨٠ — ١٣٥٠ ق.م
عصر الامبراطورية الثانية	
الأسرة التاسعة عشرة	١٣٥٠ — ١٢٠٥ ق.م
(المعارك المصرية الحيثية وأهمها كادش) ...	
الأسرة العشرون...	حوالى ١٢٠٥ — ١١٩٠ ق.م
الأسرة الحادية والعشرون تحكم فى تنيس	« ١٠٩٠ — ٩٤٥ ق.م
الأسرة الثانية والعشرون (الليبية) تحكم فى بوبسطة	« ٩٤٥ — ٧٤٥ ق.م
الأسرة الثالثة والعشرون تحكم فى بوبسطه... ...	« ٧٤٥ — ٧١٨ ق.م
الأسرة الرابعة والعشرون تحكم فى سايس	٧١٨ — ٧١٢ ق.م
الأسرة الخامسة والعشرون تحكم فى نباتا وملوكها نوبيون وأهمهم طرهاقه هازم إيزارهادون الأشورى (٦٧٣ ق.م)	٧١٢ — ٦٦٣ ق.م
الأسرات الآشورية	٦٧٠ — ٦٦٠ ق.م
الأسرة السادسة والعشرون تحكم فى سايس ...	٦٦٣ — ٥٢٥ ق م
عهد النهضة	٦٦٠ — ٥٢٥ ق.م
غزوة فارس بقيادة قمبيز	٥٢٥ ق م
طرد الفرس من مصر	٤٨٦ ق.م
رجوع الفرس إلى مصر...	٤٨٥ ق.م
محاولة المصريين طرد الفرس...	٤٦٥ — ٤٢٥ ق.م
طرد الفرس من مصر للمرة الثانية...	٤٠٥ ق.م
رجوع الفرس إلى مصر للمرة الثالثة	٣٤٠ ق.م

أحداث مصر القديمة	السنة
دخول الاسكندر مصر وتأسيس مدينة الاسكندرية	٣٣٢ ق.م
أسرة البطالمة فى مصر	٣٢٣ — ٣١ ق.م
بطليموس الأول	٣٢٣ — ٢٨٥ ق.م
بطليموس الثانى	٢٨٥ — ٢٤٧ ق.م
بطليموس الثالث	٢٤٦ — ٢٢٢ ق.م
اضمحلال الملوك البطالمة وتدخل رومة	
معركة اكتيوم البحرية واستيلاء الرومان على مصر	٣١ ق.م
الامبراطور تراجان وآثاره فى مصر	٩٨ — ١١٧
قيام ثورة فى الجيش ضد ظلم الرومان	١٧٢ م
إغارة زنوبيا ملكة تدمر على مصر	٢٦٨ م
دخول الفرس مصر	٦١٦ م
طرد الرومان للفرس	٦٢٨ م
طرد الرومان من مصر واستيلاء العرب عليها ...	٦٤١ م (٢٠و٢١ هـ)

٢ — ثبت بتواريخ أهم الأحداث فى تاريخ مصر الإسلامية

أحداث مصر الاسلامية	السنة
مصر ولاية إسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين	
و بنى أمية وصدر بنى العباس	٦٤١ — ٨٦٨ م
عصر الولاة فى عهد الخلفاء الراشدين	٦٤١ — ٦٦١ م
« « « الدولة الأموية	٦٦١ — ٧٥٠ م
عودة عمرو بن العاص الى ولاية مصر	٦٥٨ — ٦٦٣ م
مصر تابعة للدولة العباسية	
بناء مدينة العسكر	٧٥٠ م
ثورة المصريين ضد العرب	٨٣١ م
تنصيب أحمد بن طولون واليا على الفسطاط ... ثم واليا على مصر — وبناء مدينة القطائع... قيام الدولة الطولونية وانقراضها فى مصر ...	٨٦٨ م — ٩٠٥ م
مصر ولاية عباسية مرة أخرى	٩٠٥ — ٩٣٥ م
الدولة الأخشيدية	٩٣٥ — ٩٦٩ م
الدولة الفاطمية...	٩٦٩ — ١١٧١م
القائد جوهر يفتح مصر وتأسيس القاهرة ...	٩٦٩ م
دخول الملك املريك الصليبى مصر ثم جلاء جيشه عن البلاد...	١١٦٧ م
رجوع املريك لغزو البلاد — إحراق الوزير شاور الفسطاط	١١٦٨ م
وصول شيركوه من الشام لطرد الصليبيين وتعيينه وزيرا — وفاته وتعيين صلاح الدين الأيوبى وزيرا	
وفاة العاضد آخر خلفاء الفواطم	١١٧١ م
قيام الدولة الأيوبية — القاهرة	١١٧١ م

أحداث مصر الاسلامية	السنة
انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى معركة حطين	١١٨٧ م
حملة الصليبيين على مصر فى عهد الكامل ومعركة دمياط	١٢١٨ — ١٢٢١ م
حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر ومعركة المنصورة...	١٢٤٩ — ١٢٥٠ م
قيام دولة المماليك البحرية فى مصر وعلى رأسها السلطان عز الدين أيبك	١٢٥٠ م
انتصار قطز على التتار فى معركة عين جالوت ...	سبتمبر ١٢٦٠ م
السلطان الأشرف خليل يقضى على ملك الصليبيين فى الشام	١٢٩١ م
الناصر بن قلاوون ينتصر على التتار فى معركة مرج الصفر وكانت هذه هزيمتهم الرابعة ...	١٣٠٣ م
قيام دولة المماليك الشراكسة	١٣٨٢ — ١٥١٧م
السلطان الأشرف برسباى يهزم ملك قبرص الذى يقع فى اسر المصريين ودفعه الجزية لهم ...	١٤٢٦ م
هزيمة السلطان الغورى فى معركة مرج دابق بالشام	١٥١٦ م
قيام حكم آل عثمان فى مصر وشنق السلطان طومان باى بعد هزيمته فى معركة الريدانية	١٥١٧ م
اعلان على بك الكبير استقلاله بمصر	١٧٦٩ م
إغارة الفرنسيين على مصر...	١٧٩٨ م
هزيمة المماليك فى معركة امبابه (الاهرام)	٢١ يوليه ١٧٩٨
انتصار نابليون على الترك فى معركة أبى قير البرية	١٣ يونيه ١٧٩٩
هزيمة الفرنسيين أمام الانجليز بقيادة أبركرومبى	فبراير ١٨٠١
جلاء الفرنسيين عن مصر	١٨ سبتمبر ١٨٠١

٣ — ثبت بتواريخ أهم الأحداث فى تاريخ مصر الحديثة

أحداث مصر الحديثة	السنة
اختيار الشعب المصرى محمد على واليا على مصر وموافقة الباب العالى	يوليو ١٨٠٥
التخلص من المماليك	أغسطس ١٨٠٥
انتصار محمد على على الحملة الانجليزية وهزيمتها فى معركتى رشيد والحماد	سبتمبر ١٨٠٧
نشوب الحرب الوهابية	١٨١١ — ١٨١٩
فتح السودان	١٨٢٠ — ١٨٢٣
اشتراك مصر فى حرب اليونان	١٨٢٠ — ١٨٢٨
حملة الشام الأولى وانتصار محمد على	١٨٣١ — ١٨٣٣
حملة الشام الثانية وانتصار ابراهيم فى معركة نزيب	٢٤ يونيو ١٨٣٩
صدور تقليد من سلطان تركيا بمنح محمد على ولاية مصر وراثية	١٣ فبراير ١٨٤١
تقليد ابراهيم باشا ولاية مصر	يوليو ١٨٤٨
وفاة ابراهيم باشا	سبتمبر ١٨٤٨
وفاة محمد على باشا	٢ أغسطس ١٨٤٩
ولاية عباس باشا الأول	١٨٤٨ — ١٨٥٤
ولاية سعيد باشا	١٨٥٤ — ١٨٦٣
منح دلسبس امتياز حفر قناة السويس	١٨٥٤
ولاية اسماعيل باشا	١٨ يناير ١٨٦٣
صدور فرمان حصر الوراثة فى أكبر أنجال الوالى — ضم ميناء سواكن ومصوع الى ولاية مصر	٢٧ مايو ١٨٦٥
أمر اسماعيل باشا بانشاء مجلس شورى النواب	٢٢ أكتوبر ١٨٦٦

أحداث مصر الحديثة	السنة
اشتراك الجيش المصرى فى اخماد ثورة كريت...	١٨٦٦
رفع العلم المصرى على غندوكرو (الاسماعيلية) عاصمة مديرية خط الاستواء	٢٦ مايو ١٨٧١
اعلان ضم مملكة أوينورو بالسودان فى أملاك مصر	١٤ مايو ١٨٧٢
بسط الحماية المصرية على أوغندة	١٨٧٤
فتح سلطنة دارفور	أكتوبر ١٨٧٤
ضم زيلع وبربرة الى مصر	١ يوليو ١٨٧٥
فتح هرر	١١ أكتوبر ١٨٧٥
حملة مكيلوب باشا فى الصومال	١٨٧٥
الحرب المصرية الحبشية	١٨٧٥ — ١٨٧٦
اشتراك الجيش المصرى فى حرب البلقان... ...	١٨٧٦ — ١٨٧٧
نهاية حكم الخديو اسماعيل	٢٦ يونيو ١٨٧٩
تولية الخديو توفيق باشا إلى وفاته	١٨٧٩ — ١٨٩٢
الاحتلال البريطانى	١٨٨٢
إخلاء السودان	١٨٨٥
تولية الخديو عباس حلمى وخاتمته...	١٨٩٢ — ١٩١٤
وفاة اسماعيل باشا باستامبول...	٢ مارس ١٨٩٥
استعادة السودان	١٨٩٨
تولية السلطان حسين كامل ووفاته	١٩١٤ — ١٩١٧
اعلان الحماية البريطانية	١٩١٤
هجوم الاتراك على قناة السويس وردهم	١٩١٥
تولية السلطان أحمد فؤاد الأول ووفاته	١٩١٧ — ١٩٣٦
طلب سعد زغلول وزملائه استقلال مصر ونفيهم	٨ مارس ١٩١٩
إعلان الملكية فى مصر	١٥ مارس ١٩٢٢

أحداث مصر الحديثة	السنة
لجنة ملنر	٧ ديسمبر — ٦ مارس ١٩٢٠
مفاوضات كرزون وعدلى	١٩٢١
الغاء الحماية البريطانية	١٩٢٢
اعلان الدستور	١٩٢٣
مفاوضات زغلول ومكدونالد	١٩٢٤
مصرع لى ستاك باشا سردار الجيش	٢٠ نوفمبر ١٩٢٤
الانذار البريطانى و إخلاء السودان	٢٢ نوفمبر ١٩٢٤
مفاوضات تشمبرلين وثروت	١٩٢٧
مفاوضات هندرسون ومحمد محمود	١٩٢٩
مفاوضات هندرسون والنحاس	١٩٣٠
تعديل الدستور	٢٢ أكتوبر ١٩٣٠
العودة الى دستور ١٩٢٣	١٢ ديسمبر ١٩٣٥
تولية جلالة الملك فاروق الأول	٦ مايو ١٩٣٦
توقيع المعاهدة المصرية البريطانية	٢٦ أغسطس ١٩٣٦
نشوب الحرب العالمية الثانية وانتهاؤها	١٩٣٩ — ١٩٤٥
مفاوضات اسماعيل صدقى واللورد ستانسجيت...	أبريل/سبتمبر ١٩٤٦

الملحق الثانى

حروب مصر

---

١ — حروب مصر القديمة

حروب اتحاد الوجهين القبلى والبحرى ... ... عهد الملك مينا

نديا (الأسرة الخامسة) ... ... عهد الملك سحورع

وادى مغارة (الأسرة الخامسة) ... ... عهد نوسررع

سينا (الأسرة الخامسة) ... ... عهد منكاوحد

وادى الحمامات (الأسرة السادسة) ... ... عهد الملك إتى

النوبة (الأسرة السادسة) ... .. عهد بيبى الأول

فلسطين (الأسرة السادسة) ... ... عهد « «

النوبة (الأسرة السادسة) ... ... عهد مرن رع

وادى الحمامات (« الحادية عشرة) ... ...عهد منتوحتب الثالث

النوبة (« الحادية عشرة) ... ... « « الرابع

النوبة (« الثانية عشرة) ... ... « سنوسرت الثالث

الشام (« الثانية عشرة) ... ... « « «

أواريس (الهكسوس)(« الثامنة عشرة) ... ... « أمنحتب الأول

النوبة الى الجنادل الرابعة(« الثامنة عشرة) ... ... « تحوتمس الأول

مجدو (« الثامنة عشرة) (١٤٧٩ق.م) « « الثالث

فينيقيا (« الثامنة عشرة) ... ... عهد « الثالث

الشام (« التاسعة عشرة) ... ... رمسيس الأول

قادش (« الناسعة عشرة) (١٢٨٨ق م) رمسيس الثالث

فلسطين (« السادسة والعشرون) (٦٤٠ق.م) ابسماتيك

رفح البطالسة (٢١٧ق.م) ... بطليموس الرابع

٢ — حروب مصر الإسلامية

عصر الولاة :

القيروان (٦٧٧م) ... ... ولاية مسلمة بن مخلد

الدولة الأخشيدية :

العريش (يونيو ٩٣٩م) ... ... محمد بن الأخشيد

الدولة الفاطمية :

معارك القرامطة فى مصر والشام (٩٧٤ — ٩٧٥م)

صور (أغسطس ١٠٩٣) ... ... المستنصر بالله
عسقلان (١١٠٣م) ... ... الآمر باحكام الله
صيداء (نوفمبر ١١٠٧م) ... ... « « « «
عسقلان (فبراير ١١١١م) ... ... « « « «
يافا (١١٢٣م) ... ... « « « «
غزة (١١٥٨م) ... ... الفائز

الدولة الأيوبية

اليمن (١١٧٣م) ... ... صلاح الدين الأيوبى
الرملة (أكتوبر ١١٧٧م) ... ... « « « «
حلب (١١٨٣م) ... ... « « « «
الكرك (١١٨٤م) ... ... « « « «
الموصل (١١٨٥م) ... ... « « « «
حطين (١١٨٧م) ... ... « « « «
بيت المقدس (١١٨٩م) ... ... « « « «
الرها (١٢٠١م) ... ... السلطان العادل
دمياط (١٢٢١م) ... ... السلطان الكامل
المنصورة (فارسكور) (١٢٥٠م) ... ... السلطانة شجرة الدر

الدولة المملوكية وما بعدها :

عين جالوت (٣سبتمبر ١٢٦٠م) ... ... السلطان قطز

قيسرية (١٢٦٥م) ... ... « بيبرس

سيس (١٢٦٥م) ... ... « «

يافا (١٢٦٨م) ... ... « «

أنطاكيا (١٢٦٨م) ... ... « «

البيرة (١٢٧٣م) ... ... « «

حمص (١٢٨٢م) ... ... « قلاوون

طرابلس (١٢٨٩م) ... ... « «

عكا (١٢٩١م) ... ... الأشرف خليل

مرج الصفر (١٣٠٣م) ... ... السلطان الناصر محمد بن قلاوون

ليماسول (١٤٢٦م) ... ... السلطان برسباى

لارناكا (١٤٢٦م) ... ... « «

نيقوسيا (١٤٢٦م) ... ... « «

مرج دابق (١٥١٦م) ... ... السلطان الغورى

الريدانية (١٥١٧م) ... ... السلطان طومان باى

لأهرام (إمبابة)(٢١ يوليو ١٧٩٨م) ... ... الأميران ابراهيم بك ومرادبك

حروب مصر فى القرن التاسع عشر

١ — حروب شبه جزيرة العرب

الموقعة	التاريخ	
الصفراء	أكتوبر	١٨١٢
المدينة المنورة	ديسمبر	١٨١٢
مكة	يناير	١٨١٣
الطائف	يناير	١٨١٣
بسل	يناير	١٨١٥
الشقراء	يناير	١٨١٨
الدرعية	سبتمبر	١٨١٨
بوغاز الديك	يناير	١٨٢٤
سيل زبران	فبراير	١٨٢٤
عقبة الملاحة	فبراير	١٨٢٤
طيب	مارس	١٨٢٤
رايده	مارس	١٨٢٤
قرية الشريف	مايو	١٨٢٥
جبل سقارة	يوليو	١٨٢٥
مضيق ريعان	يناير	١٨٢٥
قلعة الطائف	مايو	١٨٢٥
خميس مشيط	أغسطس	١٨٣٤
المناظر	سبتمبر	١٨٣٨
تعز	يوليه	١٨٣٧
الحسيلية	يوليه	١٨٣٧
سهراب	أغسطس	١٨٣٧

(تابع) شبه جزيرة العرب

الموقعة	التاريخ
عدن	سبتمبر ١٨٣٧
عـدن	اكتوبر ١٨٣٧
البجيـلة	نوفمبر ١٨٣٧
تعـز	ديسمبر ١٨٣٧
برحرح	يناير ١٨٣٧
القاعـدة	يناير ١٨٣٧
قرية راشد	مارس ١٨٣٨
دفير	مايو ١٨٣٨
عنيزة	مايو ١٨٣٨
منبت الحشيش	؟ ١٨٣٨
مضيق فرسين	سبتمبر ١٨٣٨
الدرعية	؟ ١٨٣٨
نجع بنى عمر وعوف	أكتوبر ١٨٣٨
الشهداء	أكتوبر ١٨٣٨
الديلم	أكتوبر ١٨٣٨
حصار وسقوط الديلم	٥ الى ١٠ ديسمبر ١٨٣٨
جزر البحرين	يونيه ١٨٣٨
مضيق سير	يوليو ١٨٣٩
الحسيذية	يوليو ١٨٣٨
جبل جفر	أكتوبر ١٨٣٩
جبل الغفرة	أبريل ١٨٤٠
ثورة العسير	١٨٦٢

٢ — حروب اليونان

الموقعة	التاريخ
نوارينو	٢٣مارس إلى ١٣ مايو ١٨٢٥
كوندورونى	يونيو ١٨٢٥
كالاماتا	يونيو ١٨٢٥
دير فيلاندى	يونيو ١٨٢٥
تور كى خورا	يونيو ١٨٢٥
ليوناردو	يونيو ١٨٢٥
بارتينى	يونيو ١٨٢٥
تريبولتزا	يونيو ١٨٢٥
مكونيه ؟؟	يونيو ١٨٢٥
مسولونجى	يونيو ١٨٢٥

٣ — حروب الشام

عكا	مايو ١٨٣٢
الزرّاعة	ابريل ١٨٣٢
دمشق	يونيو ١٨٣٢
حمص	يوليو ١٨٣٢
حماة وحلب	يوليو ١٨٣٢
بيلان	يوليو ١٨٣٢
انطاكية واللاذقية	اغسطس ١٨٣٢
قونيه	نوفمبر ١٨٣٢
حرب الدروز	١٨٣٧ — ١٨٣٨
نزيب	يونيو ١٨٣٩
بيروت	سبتمبر ١٨٤٠
عكا	نوفمبر ١٨٤٠

٤ — حروب روسيا

الموقعة	التاريخ
تورتوكاى	أكتوبر ١٨٥٣
أولستنترا	نوفمبر ١٨٥٣
ساسترا	يناير ١٨٥٤
باباداج	مارس ١٨٥٤
سلسترا	مايو ويونيو ١٨٥٤
واقعة عبور الدانوب	يولية ١٨٤٤
ألما	سبتمبر ١٨٥٤
أوباتوريا...	فبراير ١٨٥٥
سباستيبول	أبريل ١٨٥٥
أوباتوريا الثانية	سبتمبر وأكتوبر ١٨٥٥
روسجوق	يونيه ١٨٧٧
يني كوى	أغسطس ١٨٧٧
قره حسن كوى...	أغسطس ١٨٧٧
قاضى كوى	أغسطس ١٨٧٧
كاسل جيفو...	سبتمبر ١٨٧٧
بوب كوى	سبتمبر ١٨٧٧
سنان كوى	سبتمبر ١٨٧٧
جيرو كوفنا	سبتمبر ١٨٧٧
جاير كوى	سبتمبر ١٨٧٧
بازارجق	سبتمبر ١٨٧٧
بازارجق الثانية	يناير ١٨٧٨

٥ — حروب الصرب

الموقعة	التاريخ
سيو تيليج ؟	أغسطس ١٨٧٦
سينجا	أغسطس ١٨٧٦
دريزينيه	سبتمبر ١٨٧٦
راوونا وسلاويج...	سبتمبر ١٨٧٦
زايجار	أكتوبر ١٨٧٦

حروب السودان والحبشة

الشايقية	نوفمبر ١٨٢٠
بربر	مارس ١٨٢١
الأبيض	ابريل ١٨٢١
شندى...	مايو ١٨٢١
المتمة	مايو ١٨٢١
الخرطوم	مايو ١٨٢١
سنار	يونيو ١٨٨١
فازوغلى	يناير ١٨٢٢
فاشودة	١٨٦٥
ضم مصوع للأملاك المصرية	١٨٦٦
غندوكرو	مايو ١٨٧١
ضم اونيورو للأملاك المصرية	مايو١٨٧٢
دارفور	١٨٧٤
كيرين	١٨٧٤
هرر	١٨٧٤

(تابع) حروب السودان والحبشة

الموقعة	التاريخ
ضم زيلع للأملاك المصرية	١٨٧٥
حملة نهر جوبا	١٨٧٥
عدوة	نوفمبر ١٨٧٥
جرع	مارس ١٨٧٦
سنكات	أغسطس ١٨٨٣
جباب	سبتمبر ١٨٨٢
الطيب	نوفمبر ١٨٨٣
طوكر وسنكات	نوفمبر ١٨٨٣
طماى	ديسمبر ١٨٨٣
ترنكتات	فبراير ١٨٨٤
سنكات	فبراير ١٨٨٤
طوكر	فبراير ١٨٨٤
التيب	فبراير ١٨٨٤
طاماى	مارس ١٨٨٤
أبو طليح	يناير ١٨٨٥
كربكان	فبراير ١٨٨٥
طاماى	أبريل ١٨٨٥
كسلا	يوليو ١٨٨٥
هندوب	يناير ١٨٨٨
الجميزة	ديسمبر ١٨٨٨
الحفافيت	فبراير ١٨٩١
طوكر	فبراير ١٨٩١

(تابع) حرب السودان والحبشة

الموقعة	التاريخ
طوكر	يونيو ١٨٩٦
القضارف	سبتمبر ١٨٩٨
الميدان النهرى	
جنيس	ديسمبر ١٨٨٥
جميزة	ديسمبر ١٨٨٨
عرجين	يوليو ١٨٨٩
توشكى	أغسطس ١٨٨٩
عكاشه	مارس ١٨٩٦
فيركة	يونيو ١٨٩٦
أبو حمد	أغسطس ١٨٩٧
بربر	سبتمبر ١٨٩٧
عطبره	أبريل ١٨٩٨
أم درمان (كرى)	سبتمبر ١٨٩٨
جديد	نوفمبر ١٨٩٩
داوريات بحر الغزال	ديسمبر ١٩٠٠ — أبريل ١٩٠٢
جيروك	يناير ١٩٠٤ — مارس ١٩٠٥
نيام نيام	يناير ١٩٠٥ — مارس ١٩٠٥
تالودى	يونيو ١٩٠٦
مديرية النيل الأزرق (الكتفية)	أبريل ١٩٠٨ — مايو ١٩٠٨
نيـاما	نوفمبر ١٩٠٨

السودان

الموقعة	التاريخ
أتويت	فبراير ١٩١٠ — مارس ١٩١٠
عليـاب	مارس — أبريل ١٩١٠
جبل تجوى	نوفمبر ١٩١٠
جبال الكتلة ونيما	نوفمبر — ديسمبر ١٩١٠
داورية الأنواك	مارس — أبريل ١٩١٢
الأجاكير	مارس ١٩١٣
جبال الطير الأخضر	يناير ١٩١٤
المندل والصباى	مارس — أبريل ١٩١٤
داوريات وادى الزراف	ديسمبر ١٩١٣ — فبراير ١٩١٤
داورية التركانة	أبريل — يونيو ١٩١٥
داورية جبـل مرى	أبريل — يونيو ١٩١٥
داورية جبال ايمـا تونج	يناير — مارس ١٩١٦
دارفور	مارس — ديسمبر ١٩١٦
داوريات اللاد والنوير	فبراير ١٩١٥ — أبريل ١٩١٧
داوريات النيما	مارس ١٩١٧ — فبراير ١٩١٨
داورية تورجانا	ديسمبر ١٩١٧ — يوليو ١٩١٨
داورية ماتونج	مارس — مايو ١٩١٨
داورية جارجاك نوير	
داوريات علياب	نوفمبر — ديسمبر ١٩١٩
	مارس — مايو ١٩٢٠
	مارس — مايو ١٩٢٠
جنوب وغرب دارفور	سبتمبر ١٩٢١ — يناير ١٩٢٢
	سبتمبر — نوفمبر ١٩٢١

مصادر البحث

الدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية (رسائل الثقافة العسكرية) .

الدكتور سليم حسن : مصر القديمة بالفرنسيه جزءان .

مسيو شارل سينيوبوس : تاريخ الشعب الفرنسى (بالفرنسية) .

عبد الرحمن الرافعى بك :

تاريخ الحركة القومية — جزءان — يشمل حوادث الثورة الفرنسية فى مصر

« « « — عصر محمد على .

« « « — جزءان — عصر إسماعيل .

« « « — الثورة العرابية .

« « « — مصطفى كامل باشا .

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال .

البكباشى عبد الرحمن زكى :

القاهرة من المعز إلى الفاروق .

معارك حاسمة فى تاريخ مصر — دمياط والمنصورة .

الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير .

الجيش المصرى الحديث فى عهد الفاروق .

الجيش المصرى بين أمس واليوم .

كتب تواريخ الكتائب المشاة فى الجيش خمسة أجزاء .

الممهدات لتاريخ الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير — بالاشتراك مع الأستاذ أسد رستم .

الأمير عمر طوسون :

صفحات من تاريخ مصر فى عهد محمد على .

الجيش المصرى فى الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٥ م) .

بطولة الأورطة السودانية المصرية فى حرب المكسيك التى شبت بين عامى (١٨٦٣ و ٦٥ ١٨) .

مديرية خط الاستواء — ثلاثة أجزاء .

الأستاذ فيليب جلاد : قاموس الإدارة والقضاء .

«قدرى حافظ طوقان وآخرون : نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية .

« محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس نشرت بمجلة الجيش — المجلد الثامن — ص ١٩٤ — ٢٠٤

انتهى بحمد الله يوم السبت الموافق ١٤ سبتمبر سنة ١٩٤٦

فهرس الصور والخارطات

صفحة

مركبة مصرية حربية ٣

الأمبراطورية المصرية سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد ٦

جندى يصوب مهما ١١

المحاربون المصريون القدماء فى طريقهم إلى الظفر ١٣

فرعون يستعرض أسرى الأعداء ٢١

قائد على مركبته الحربية فى ميدان القتال ٢٣

رمسيس الثانى راكبا عجلته الحربية يحارب الليبيين... ... ... ٢٥

أمير يقود مركبته الحربية ٢٩

جنود المشاه القدماء ٣١

الدولة المملوكية فى القرن الرابع عشر ٣٦

جندى فى العصر الاسلامى ٣٧

جندى « « « ٤١

فارس من عهد الأيوبيين ٤٢

الملك لويس التاسع مأسورا فى المنصورة ٥٨

فارس فى أيام الممالك البحرية ٦٥

جنود محمد على ٧٢

محمد على الكبير ٨٢

عواهل البيت العلوى الكريم ٨٣

محمد على يوليه الشعب وزعماؤه حكم البلاد ٨٥

القائد ابراهيم باشا وأركان حربه سليمان باشا فى ساحة معركة نزيب... ... ... ٨٨

موقف رائع للجنود المصريين فى معركة أوباتوريا — ١٧ نوفمبر سنة ٨٥٥ ... ٩٠

تمثال البطل ابراهيم باشا فى القاهرة ٩٣

الاستكشافات المصرية فى أفريقيا فى عهد الخديو اسماعيل باشا ... ...

فارس مصرى يعلن الظفر على الملأ ٩٧

جندى مشاة ينفخ النفير ٩٩

جلالة الفاروق المعظم ١٠٠

مصرية فى الجيش الحديث ١٠٦

فصول الكتاب

	صفحة
مقدمة	١
مصر الفرعونية	٥
مصر الاسلامية	٣٥
الدولة الطولونية...	٣٧
الدولة الفاطمية	٣٩
الدولة الأيوبية	٤٢
المماليك البحرية	٦١
المماليك الشراكسة	٦٦
ظفر مصر فى ميادين خالدة	٧٣
الفرنسيون فى مصر	٧٨
الأسرة المحمدية العلوية	٨١
محمد على باشا...	٨٣
اسماعيل باشا	٩١
الملك فؤاد الأول...	٩٨
فاروق المعظم	١٠٠
الخلاصة...	١٠٢
ثبت بتواريخ أهم الأحداث فى تاريخ مصر القديمة	١٠٧
ثبت بتواريخ أهم الأحداث فى تاريخ مصر الاسلامية	١١٠
ثبت بتواريخ أهم الأحداث فى تاريخ مصر الحديثة	١١٢
حروب مصر القديمة	١١٥
حروب مصر الاسلامية	١١٦
حروب مصر فى القرن التاسع عشر	١١٨
فى شبه جزيرة العرب - فى الشام - فى البلقان - فى السودان والحبشة ...	١١٩
المراجع	١٢٦

تم طبع هذا الكتاب فى يوم الثلاثاء ١٣ من ذى القعدة سنة ١٣٦٥
(٨ من أكتوبر سنة ١٩٤٦)

مدير المطبعة الأميرية
محمد خضر

PB-36245-SB
5-11T
CC

المطبعة الاميرية ٣٨٧٠-١٩٤٦-٣٠٠٠

Date Due

Demco 38-297

NYU - BOBST
31142 02821 9775
DT79 .Z3
Misr al-zaḥirah : salḥah min t